
أسامة المسلم
سعد الدبّاس

الذنب القديم لا يفارقنا ..

حتى وإن دفناه أو سكتنا عنه وتوقفنا عن استذكاره ..

لا أحد ينسى ..

يمكنك أن تتناسى .. لكنك لن تنسى أبداً

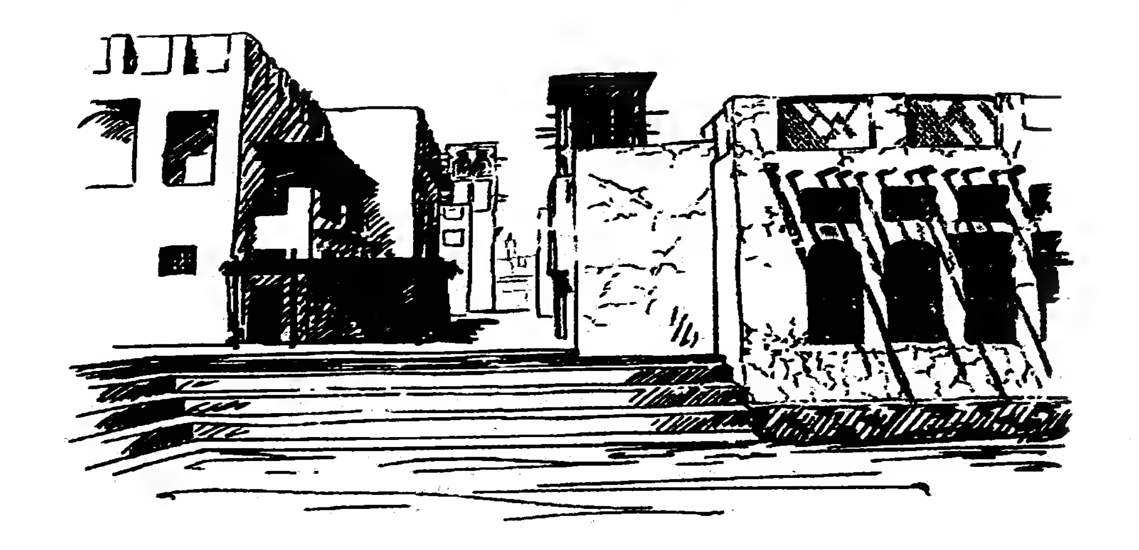
خاصة تلك الذكريات المحفورة في ضمائرنا والمنحوتة على جنبات عقولنا بريشة الألم ومحبرة الظلم ..

أسامة المسلم

بل يلاحق

ويقتص ..

قرار إزالة



هاتف منزلي ثابت يرن ..

يلتقط السماعة رجل في منتصف الخمسين من عمره ..

«نعم تفضل أنا (عبد الرحمن) ..»

تلقى (عبد الرحمن) خبر إنهاء إجراءات إزالة منزل أبيه الراحل في حيهم القديم الذي تركه مع إخوته منذ سنوات طويلة وأخبره موظف البلدية الذي تواصل معه أن أمامه مهلة أسبوعين لأخذ أي

(عبد الرحمن) الموظف شكر
متعلقات تخصهم منه قبل البدء بالهدم. بعد إنهائه المكالمة تواصل مع أخته
وأخبره بأنه سوف يبلغ بقية الورثة.
(عائشة) التي تأتي بعده في ترتيب إخوته سناً وقد أكملت عامها الثامن
والأربعين قبل عدة أشهر وتعمل مديرة لإحدى المدارس الثانوية.
(عائشة) مجيبة على اتصال أخيها الأكبر عبر الهاتف المتنقل :
«أهلاً أخي .. كيف حالك وحال عائلتك؟»
(عبد الرحمن) : جميعنا بخير ولله الحمد .. كيف حالكِ أنتِ وبناتكِ ..
وحال إخوتي؟
(عائشة) : الحمد لله .. بناتي تزوجنَ جميعاً وأخونا (فهد) بدأ مشروعه
الخاص ويفكر بالزواج وانتقل لشقة خاصة قبل عدة أشهر بالرغم من
رفضي إلا أنه أصر على ذلك
(عبد الرحمن) : (فهد) لم يعد طفلاً لقد قارب على إكمال الأربعين من
عمره
(عائشة) : سيظل دوماً في نظري أخي الصغير المشاكس
(عبد الرحمن) : ماذا عن (بندر)؟
(عائشة) : هو الآخر تركنا وفضل سكن الجامعة .. هذه سنته الأخيرة

في كلية الطب .. لم يبقَ معي سوى آخر العنقود أختنا (سارة) ولن أتركها ترحل إلا لبيت زوجها

(عبد الرحمن) ضاحكاً : هي لا تزال في المرحلة الثانوية والوقت مبكرٌ على ذلك

(عائشة) : في كل الأحوال هي من بقي معي بعد زواج بناتي ورحيل زوجي رحمه الله .. البيت أصبح موحشاً عليّ بدونهم

(عبد الرحمن) : أشياء كثيرة حدثت ولا علم لي بها خاصة موضوع ترك (فهد) و(بندر) المنزل

(عائشة) ممازحة : لو كنت تسأل عنا لعرفت أخبارنا

(عبد الرحمن) : تعرفين أن طبيعة عملي في التجارة لا تعطيني وقتاً حتى لأرى عائلتي الخاصة

(عائشة) : نحن عائلتك أيضاً .. وبالمناسبة أنا وبقية إخوتك ما زلنا نجتمع بشكل أسبوعي كل جمعة على الغداء عندي وهم دائمو السؤال عنك

(عبد الرحمن) : أعترف بتقصيري وسأحاول بذل جهد أكبر في المستقبل لأكون متواصلاً معكم أكثر

(عائشة) : سنسعد بذلك كثيراً

(عبد الرحمن) : تلقيت اليوم اتصالاً من البلدية بشأن منزلنا القديم ..

(عائشة) بحزن : هل قرروا إزالته؟

(عبد الرحمن) : نعم وسيبدؤون بعد عدة أيام

(عائشة) : أنا لا أفهم لمَ وافقت على ذلك .. نحن لسنا بحاجة لمبلغ التعويض فجميعنا ميسورو الحال

(عبد الرحمن) : لم يكن خيار الرفض مطروحاً والمسألة ليست مسألة مال هناك مشروع كبير لتطوير المناطق والأحياء وسيتم إزالة جميع المنازل القديمة فيها سواء وافقنا أم لا ومبلغ التعويض مجرد إجراء روتيني وهو ليس سيئاً بالمناسبة

(عائشة) بنبرة مهمومة : جميع ذكريات طفولتنا سوف تمسح .. أشعر بحزن كبير

(عبد الرحمن) : طرأت على بالي فكرة الآن .. ما رأيك أن ننقل اجتماع غداء الجمعة عندك هذا الأسبوع لمنزلنا القديم قبل أن يزال كي نستذكر أيامنا الخوالي فيه

(عائشة) بسعادة : فكرة رائعة!

(عبد الرحمن) : ويمكنكِ أنتِ أو أي أحد من إخوتي أخذ أي شيء تريدونه من هناك

(عائشة) : سأتواصل معهم وأخبرهم باتفاقنا وسوف أعد العدة كلها وسننتظرك هناك بعد صلاة الجمعة .. لا تتأخر أو تعتذر نحن مشتاقون لرؤيتك

(عبد الرحمن) : بإذن الله سأكون متواجداً في الموعد

حل يوم الجمعة واجتمع الإخوة الخمسة في منزل أبيهم الطيني الكبير في حيهم القديم ذي الفناء الواسع والسقفِ المفتوح وجلسوا حول طاولة خشبية صغيرة وزع حولها مجموعة من الكراسي البلاستيكية البيضاء مستذكرين أيامهم الجميلة التي خلت.

(عائشة) متأملة الجدران الطينية حولها : «رحم الله أمي وأبي .. كانا يرفضان أن نلعب في الشارع ولا يسمحان لنا بتجاوز هذا الفناء ..»

(عبد الرحمن) وهو يحتسي الشاي : خوفهما علينا كان مبرراً .. كنا أشقياء جدّاً

(سارة) ممازحة : تحدثوا عن أنفسكم أنا كنت صغيرة ولم أتسبب بالمشكلات

(فهد) مبتسماً : بالطبع هذا الكلام لا ينطبق على (بندر) .. لقد ذاق أبي منه الأمرين

(بندر) : من منا كان يتسلل إلى الخارج للعب الكرة في الشارع وكُشف أمره عندما كسر إنارة جارنا الذي ساقه من أذنه لأبي؟

(فهد) ضاحكاً : لقد كنت مجرد مراهق صغير .. ادفن الماضي ولا تتحدث عنه رجاءً!

(بندر) : أذكر أنها كانت نفسها السنة التي قرر أبي ترك الحارة فيها .. أعتقد أنك أنت من كان السبب

ضحك الجميع على تلك القصة وقصص كثيرة أخرى كانوا يستذكرونها ويروونها بعضهم على بعض وخلال ذلك طُرق الباب فقال (بندر) وهو ينهض من مكانه :

«يبدو أن الغداء قد وصل ..»

(عائشة) : ما زلت لا أرى حاجة لطلب الغداء من المطعم .. أنا و(سارة) كان يمكننا أن نعد طعام الغداء

(عبد الرحمن) : نحن هنا للاستمتاع بوقتنا والحديث فيما بيننا .. لا نريد أن تنشغلا بالطبخ

(سارة) ضاحكة : وأنا أُؤيد أخي الأكبر وبقوة!

(عائشة) : بالطبع تتفقين معه فأنتِ تريدين التملص من العمل في المطبخ .. عاجلاً أم آجلاً يجب أن تتقني الطهي

(سارة) مبتسمة : أعرف قصدكِ يا أختي الكبيرة لكن من سيتزوجني يجب أن يتفهم أني لا أجيد الطبخ

(فهد) : من سيتزوجك يجب أن يتفهم أشياء كثيرة

(سارة) وهي تلكزه : ماذا تقصد؟!

اجتمع الجميع على مائدة أرضية في غرفة المعيشة وخلال تناولهم للغداء قال (عبد الرحمن) : طعم اللحم مميز جدّاً يا (بندر) .. من أين أحضرته؟

(بندر) : من سوق المواشي .. نهضت باكراً كي ألحق على أجود ما يعرض قبل أن يباع

(عائشة) : الخروف صغير الحجم

(بندر) ضاحكاً : لأنه صغير السن! .. تعاركت مع شابٍ للحصول عليه وفي النهاية ظفرت به

(سارة) : ما هذا الخروف الذي يستحق العراك؟

(بندر) : هو الآخر كان يبحث عن خروف صغير .. قال بأنه يريد شراءه لعمته

(فهد) واضعاً لقمة في فمه : كل هذه التفاصيل جمعتها من عراك؟

(بندر) باسماً : لا لا .. شجارنا تحول لحوار ودي في نهاية المطاف وقد تعرفت عليه وساعدته كذلك في البحث عن خروف آخر حتى وجده واطمأننت

(سارة) ضاحكة : أصبحتما صديقين إذاً!

(بندر) : في الحقيقة نعم .. تبادلنا أرقام هواتفنا ووعدني بالاتصال عليّ بعد عشرة أيام عند عودته من رحلة خلوية يقوم بها مع عائلته

(عبد الرحمن) بنبرة حزينة : «قضاء وقتٍ مع العائلة شيء جميل .. لم أكن أعرف أني أفوت الكثير من المتعة بعدم اللقاء بكم .. أحاديثكم هذه تجلب السرور والدفء لقلبي .. أتمنى بحق ألا تنقطع هذه العادة الجميلة وأن نورثها لأبنائنا .. سوف أحضر أبنائي الأسبوع القادم .. ما رأيكِ يا (عائشة)؟»

(عائشة) ضاحكة : لا، أرجوك لا تفعل! .. اجتماعنا الأسبوعي هو مهربي الوحيد من بناتي وأحفادي الذين يغزونني في منزلي طيلة أيام

الأسبوع .. لنبقِها بيننا فقط .. ونرتب لقاءَ خاصّاً بهم في يومٍ آخر نتفق عليه لاحقاً .. هكذا أفضل

(فهد) ممازحاً أخته الكبرى : هل الحياة العائلية متعبة لهذا الحد يا أختي؟ .. لا تخيفيني أكثر فقد ترددت سنوات طويلة في الإقدام على الزواج

(عائشة) وهي تضع لقمة في فمها باسمة : لا تسألني كي لا أضطر للكذب عليك

(بندر) بتهكم : لا تحاول أن تقنعنا أن ترددك هو بسبب رقة مشاعرك الخائفة من الارتباط

(فهد) واكزاً أخاه الأصغر بكوعه : اخرس أنت!

(سارة) بتساؤل : عن ماذا تتحدثان؟

تبسم (عبد الرحمن) وقال : إخوتي الصغار لم يتغيروا

(عائشة) وهي تشرب بعض الماء : هذا لأن عقولهم لم تلحق بأجسادهم

نهض (بندر) من مكانه وهو يقول : الحمد لله .. مائدة دائمة بإذن الله

(عبد الرحمن) بتعجب : إلى أين؟ .. أنت لم تتناول شيئاً!

(سارة) غامزة بعينها : اتركه فهو يتبع حمية غذائية منذ فترة

شيء؟
(عائشة) بقلق : لماذا؟! .. هل أنت بخير؟ .. هل تعاني من شيء؟

(بندر) ضاحكاً : ما بكما؟ .. مجرد تخفيف من الدهون لا أكثر

(عائشة) والقلق لا يزال يخالجها : اصدقني القول .. ما بك؟

(بندر) مبتسماً : أقسم لكِ أني لا أعاني من شيء

(عائشة) : لا أصدقك!

(بندر) بتجهم لـ (سارة) : هل أنتِ سعيدة الآن؟!

(سارا) وهي تتناول لقمة من الأرز ضاحكة : نعم!

(بندر) مقبلاً رأس أخته الكبرى : «صدقيني لا يوجد شيء سوى أني أحاول تخفيف وزني قليلاً ..»

(عبد الرحمن) مشيراً بكفه القابضة على لقمة الأرز : «أكمل طعامك الآن وخفف وزنك لاحقاً ..»

(بندر) واضعاً كفه على بطنه : لقد شبعت صدقوني

(فهد) ناهضاً هو الآخر : الحمد لله

(عائشة) : أين ستذهب أنت الآخر؟! .. ما بكم اليوم؟!

(فهد) مبتسماً : ما بكِ أنتِ يا أختي؟ .. لقد شبعنا

(عائشة) تكمل طعامها متذمرة : يأكلون مثل العصافير ويقولون شبعنا!

سار (بندر) و(فهد) للمطبخ ليغسلا أياديهما وهما يضحكان على قلق أختهما الكبرى عليهما ودار هذا الحوار فيما بينهما عند المغسلة :

(فهد) ضاحكًا : هل رأيت قلق أختك المبالغ فيه؟

(بندر) مستخدماً علبة المناديل :

«بصراحة لا أمانعه فهو يذكرني بقلق أمي رحمها الله .. لقد ورثت منها تلك العادة ..»

(فهد) نافضاً قطرات الماء من يديه : «أنا لم أكن أستمتع بقلق أمي المبالغ فيه علينا فقد حرمنا الكثير كأطفال»

(بندر) يمد علبة المناديل لأخيه : «حرمك من ماذا؟ .. لقد عشنا طفولتنا بالكامل ..»

(فهد) ماسحاً فمه ويديه بالمنديل : بالنسبة لي حرمت من اللعب مع أصدقائي

(بندر) : أصدقاؤك كانوا أصدقاء سوء والحمد لله أن أبي وأمي منعاك من مصاحبتهم

(فهد) معيدًا علبة المناديل لمكانها : «لقد

ولا فائدة من تذكره والتحسر عليه .. ثم إنه بعد انتقالنا للبيت

لم أجد المتعة نفسها التي كنت أجدها في أزقة حينا القديم هذا»

(بندر) باسماً : إذا كنت لا تزال تريد اللعب في الشارع فالفرصة متاحة

(فهد) : ماذا تقصد؟

(بندر) : لقد رأيت كرتك القديمة في غرفة أمي حينما صعدت لها عند

وصولي لأستعيد بعض الذكريات .. ما رأيك؟

(فهد) : عن أي كرة تتحدث؟ .. لا بد وأنها بالية وتحولت لفتاتٍ الآن

(بندر) : لا .. هي تحتاج للنفخ فقط .. هيا لنحضرها ولنقنع (عبد

الرحمن) بمشاركتنا اللعب أيضاً

(فهد) : تقنع (عبد الرحمن) بأن يلعب؟ .. هذه ستكون سابقة

صعد الاثنان للطابق العلوي وعند دخولهما الغرفة رأى (فهد) الكرة

في إحدى زواياها فسار نحوها والتقطها باسماً وهو يقول : «هذه الكرة

تحمل ذكريات كثيرة ..»

(بندر) بتعجب : غريبة ..

(فهد) ملتفتًا نحو أخيه : ما الأمر؟

(بندر) : الكرة عندما رأيتها هذا الصباح كانت في الجهة الأخرى من الغرفة وأنا لم أحركها

(فهد) وهو يرمي الكرة للأعلى ويلتقطها بين يديه :

«المهم أنها لا تزال موجودة .. هيا لننفخها في المحطة القريبة من منزلنا!»

(بندر) مشيراً للمكان الذي كانت الكرة مركونة فيه : ما هذه الورقة؟

وضع (فهد) الكرة تحت إبطه والتقط الورقة قائلاً : هذه صورة وليست ورقة ..

(بندر) مقترباً من أخيه : صورة؟

(فهد) ممعناً النظر فيها باسماً :

«نعم .. صورة قديمة لأمي وأبي في فناء المنزل مع (عبد الرحمن) و(عائشة) .. كم عمر هذه الصورة؟»

(بندر) : أخوك (عبد الرحمن) في الصورة يبدو أنه في الخامسة عشرة .. معنى ذلك أن الصورة لها أكثر من أربعين عاماً

(فهد) ضاحكاً : انظر لشكل (عائشة)! .. كانت سمينة جدّاً وبشعر منكوش!

(بندر) مبتسماً : نعم .. كانت لا تزال في الثامنة أو التاسعة من العمر على ما أعتقد

(بندر) قالباً ظهر الصورة : من التقط الصورة؟

(فهد) : غالباً خالي (صالح) فهو من كان يهوى الأجهزة الحديثة في ذلك الوقت

(بندر) مشيراً لشيء خلف أخته (عائشة) في الصورة : من هذا؟

(فهد) وهو يمعن النظر أكثر ويمسح بأصبعه بعض التراب المجتمع على الصورة : «كأنه صبي صغير ..»

(بندر) : وجهه غير مألوف؟

(فهد) : ليس من أفراد العائلة ..

(بندر) متفكراً خلال تحديقه بالصورة : صحيح

(فهد) : لعله من أطفال الأصدقاء أو الجيران

(بندر) : هل تمزح؟ .. هل نسيت كيف كان أهلنا صارمين بشأن عدم اختلاطنا بأحد خصوصاً أطفال الجيران؟

(فهد) محدقاً بالصبي خلف أخته بالصورة : من يكون إذاً؟ .. ولمَ هو بالصورة معهم؟

(بندر) : إذا كان هناك أحد يمكنه حل هذا اللغز فهي أختي (عائشة) لأنها كانت الأكثر اختلاطاً بأطفال الحي عندما كانت تلعب معهم لعبة المدرسة قبل أن تمنعها أمي من الخروج .. هل تذكر قصصها التي كانت ترويها عن هذا الأمر؟

(فهد) ضاحكاً : نعم صحيح! أختك (عائشة) كانت تملك مؤهلات الانخراط بسلك التعليم منذ نعومة أظافرها

(بندر) يأخذ الصورة من يد أخيه مبتسماً : هيا لننزل ونسألها إذاً

نزل الاثنان لفناء المنزل حيث وجدا بقية إخوتهما مجتمعين يحتسون الشاي الذي أرغمت (عائشة) أختها (سارة) على إعداده وتقديمه كجزء من عملية تدريبها على مهام المطبخ وعندما رآهما أخوهما الأكبر قال : أين كنتما؟

(فهد) رامياً الكرة وسط الفناء : كنا في غرفة أمي وأبي!

(عائشة) بحزن : أنا لم أقوَ حتى هذا اليوم على الصعود ودخولها بعد وفاتهما .. أختنق بحزني وأبكي كالأطفال

(بندر) وهو يمد لها الصورة : انظري ماذا وجدنا فيها

أخذت (عائشة) الصورة ونظرت إليها وما أن رأت محتواها حتى وضعت كفها على فمها وبدأت تدمع ..

(سارة) وهي تراقب أختها الكبيرة تبكي : ما هذه الصورة؟

(فهد) مبتسماً : صورة قديمة لأمي وأبي

أخذت (سارة) الصورة من يد أختها بحماس : صحيح؟!

(بندر) مبتهجاً : نعم

(سارة) ضاحكة : من هذه السمينة ذات الشعر المنكوش؟!

(عبد الرحمن) وهو يأخذ الصورة من يدها باسماً : أريني ..

أمعن (عبد الرحمن) النظر في الصورة لثوانٍ ثم ابتسم بحزن قائلاً :

«كانت أياماً جميلة .. هذه الصورة التقطها خالكم (صالح) بآلة التصوير الجديدة التي اشتراها بعد ترقيته في ذلك الوقت ..»

(فهد) : ألم يلاحظ أحدكم شيئاً في الصورة؟

(عائشة) وهي تمسح دموعها : كنت سمينة أعرف لا داعي للتلميح!

(بندر) : لا لا .. شيئاً آخر ..

(عبد الرحمن) ممعناً بالصورة أكثر : لا .. لا يوجد شيء .. إلى ماذا تشيران؟

(فهد) يدنو من أخيه ويشير بسبابته للصبي الواقف خلف (عائشة) في الصورة :

«هذا الصبي .. هل يتذكره أحد منكما؟»

(عبد الرحمن) بنبرة استغراب : لا .. لا أذكره

(عائشة) تأخذ الصورة من يد (عبد الرحمن) : دعني أرَ ..

(فهد) : أنا و(بندر) نعتقد أنكِ الوحيدة التي يمكنها التعرف على الصبي

(عائشة) وهي سارحة في الصورة وتهز رأسها بالنفي : لا .. لم أرَه من قبل ..

(بندر) : كيف لا تذكرانه؟ .. من يكون إذاً ولِمَ هو في الصورة معكما؟

(عبد الرحمن) : الموضوع مضى عليه أكثر من أربعين عاماً .. لِمَ تسأل الآن؟

(فهد) : أي موضوع؟

(عائشة) بخليط من التوتر والغضب : موضوع الصورة!

(بندر) مستغرباً من سخط أخته :

«لا يوجد موضوع يا أختي .. نحن نسأل فقط عن هذا الصبي لأنه..»

(عبد الرحمن) ناهضاً من مكانه : لقد تذكرت أن لدي موعداً مهمّاً ..

بمنزل (عائشة)

شكراً لكم على الغداء الجميل .. موعدنا الجمعة القادم

(عائشة) وهي تتبع أخاها : خذني معك أنا أيضاً لدي ارتباط

(عبد الرحمن) لـ (سارة) : هل ستأتين معنا أم ستعودين مع أخويك؟

(سارة) ناهضة هي الأخرى : لا، سأعود معك يا أخي فلدي اختبار

مهم غداً وأريد أن آخذ قيلولة كي أتمكن من السهر للاستعداد له

(فهد) بتعجب شديد : إلى أين أنتم ذاهبون جميعاً ؟!.. الاجتماع ما زال

في أوله!

(بندر) وهو يشاركه العجب : نعم مَا بكم؟ .. هل ضايقناكم بشيء؟

(عبد الرحمن) مبتسماً : لا أبداً لكني حقّاً تذكرت أن لدي اجتماعاً مهمّاً

مع أحد التجار

(فهد) لـ (عائشة) : وأنتِ؟

(عائشة) وهي تلبس عباءتها : «أنا أيضاً مرتبطة مع إحدى بناتي

للذهاب للسوق .. لا تنسيا أن تغلقا الأبواب عند رحيلكما ..»

(سارة) : هل آخذ معي الشاي والقهوة يا أختي؟

(عائشة) سائرة نحو باب الخروج خلف (عبد الرحمن) : «لا، اتركيها لأخويك وهما سيعيدانها معهما ..»

خرج الجميع تاركين (فهد) و(بندر) في حالة دهشة من رحيلهم المفاجئ وعلى عجالة ..

ذكريات مطمورة



«إنهما يخفيان شيئًا ما ..»

قالها (فهد) محدقاً بدرفة باب المنزل المشرعة بعد خروج إخوته..
(بندر) وهو يشاركه النظر : «أتفق معك .. هل رأيت كيف كانت ردة فعلهما بعد مشاهدة الصورة؟»

(فهد) : ليس الصورة .. بل الصبي المجهول .. أعتقد أنهما يعرفانه لكنهما لا يريدان الإقرار بذلك لسبب ما

(بندر) : ماذا عنك أنت؟ .. ألا تذكر شيئاً؟

(فهد) : كيف أذكر .. هذه الصورة التقطت قبل ولادتي بثلاث سنوات تقريباً

(بندر) متوجهاً لأحد الكراسي البلاستيكية جالساً عليه واضعاً ساقاً على ساق :

«لا يوجد أحد غيرهما يمكنه إخبارنا بالحقيقة لذا انسَ الأمر ..»

(فهد) مستديراً نحو أخيه الذي بدأ يسكب لنفسه بعض القهوة :

لو كانت الصورة التقطت خارج المنزل لتغاضيت عن الأمر لكن كونها أخذت داخله ومع صبي غريب تثير فضولي بشدة خاصة مع حقيقة معرفتي بصرامة أبي في مسألة دخول الغرباء منزلنا

(بندر) مرتشفًا بعض القهوة :

«ربما نحن نبالغ بالتفكير وتحليل الموضوع .. الناس يتغيرون .. لعل أبي لم يكن هكذا في شبابه وبعد ولادتك تغير كل شيء ..»

(فهد) : هل تظن ذلك؟

(بندر) واضعاً الكوب على سطح الطاولة :

«نعم .. ربما يكون هذا الفتى ابناً لأحد الباعة المتجولين الذين يطرقون الأبواب وصادف وجوده ذلك اليوم خلال التقاط الصورة ووقف خلفهم دون أن يشعروا .. التصوير كان أعجوبة من الأعاجيب في ذلك الوقت وكل من يرى آلة تصوير مرفوعة تستعد للتصوير يقف في المشهد سواء له علاقة أم لا ..»

(فهد) وكأنه تذكر شيئًا مهمّاً : وجدتها!!

(بندر) : ماذا؟

(فهد) بحماس : خالي (صالح)! .. هو من سيخبرنا بحقيقة هذا الصبي!

(بندر) : صحيح ممكن .. هو من التقطها كما قال (عبد الرحمن)

(فهد) وحماسته تتأجج أكثر : لنذهب له الآن ونسأله!

(بندر) ناهضاً من مقعده : هل تظن أنه سيتذكر؟ .. خالك الآن تجاوز السبعين عاماً وتعرض لجلطتين

(فهد) : ما الضرر في المحاولة؟

(بندر) : لا ضرر أبداً .. لكن لنلتقِ بعد العشاء ونزرْه فلدي مشوار مهم أريد القيام به قبلها .. أنا سوف أمر بك بسيارتي

(فهد) : سأكون بانتظارك وقتها في شقتي

بعد صلاة العشاء توجه الاثنان لبيت خالهم المقيم مع إحدى بناته لكبر سنه لتعتني به خلال مرضه المزمن وبعد وصولهما طرقا باب مجلسه المفتوح حيث كان يقضي معظم وقت المساء ودخلا عليه وبعد ما رحب بهما زوج ابنته وقبلا رأس خالهما جلسا بجانبه يحادثانه لبعض الوقت ويسألان عن أحواله. لم يتمكنا من التطرق لموضوع الصورة والسبب الحقيقي للزيارة لوجود زوج ابنة خالهم معهم لذا وعندما نهض لإحضار الشاي والقهوة استغلا الفرصة بسرعة وفتحا الموضوع معه مباشرة.

(فهد) وهو يدعك يد خاله برفق : كيف حالك يا خالي (صالح)؟

(صالح) بصوت مرهق وأعين شبه مغمضة :

«أهلاً وسهلاً بابني أختي .. لَمَ كل هذه الغيبة؟ .. هل نسيتما أن لكما خالاً يشتاق لرؤيتكما؟»

(بندر) : نعترف بأننا مقصران لكننا سعيدان برؤيتك بصحة وعافية

(صالح) : الحمد لله على كل حال

(بندر) : كيف حال الأبناء؟

(صالح) : جميعهم بخير ولله الحمد

(فهد) : كيف حال ابنك سامي؟ .. هل تخرج؟

(صالح) : سامي من؟

دنا (بندر) نحو أذن أخيه وهمس له قائلاً : «الخال لا يذكر أبناءه فكيف سيذكر الصبي في الصورة؟»

(فهد) مخرجاً الصورة من جيبه : لا عليك سنرى ..

وضع (فهد) الصورة أمام نظر خاله الذي أمسك طرفها وبدأ ينظر إليها بأعين ترمش بسرعة ..

(فهد) : هل تذكر هذه الصورة يا خال؟ .. أنت من التقطها .. في منزلنا بالحي القديم .. هل تذكر؟

(صالح) بحماس مفاجئ وصوت مرتفع : سعد الدَّبَّاس! .. سعد الدَّبَّاس!

أخذ (فهد) الصورة من يد خاله بسرعة عندما تعالى صوته بالصراخ وقال : «هدئ من روعك يا خال!»

بدأ (صالِح) بالبكاء و(فهد) ينظر لـ (بندر) باستغراب ..

تحدث الخال من وراء دموعه وبصوت مرتفع قليلاً وقال : «حرق قلبها وحرقت قلوبهم! .. حرق قلبها وحرقت قلوبهم!»

(بندر) بتوتر : ما به الخال؟

(فهد) : الصورة أشعلت ذاكرة مؤلمة فيما يبدو

سكت (صالح) فجأة والتفت إليهما وقال مبتسماً بكل ترحيب : «أهلاً وسهلاً بابني أختي .. لَم كل هذه الغيبة؟ .. هل نسيتما أن لكما خالاً يشتاق لرؤيتكما؟»

(بندر) بتهكم : يبدو أن الخال قد قام بإعادة تشغيل واستعادة النظام ..

(فهد) كاتماً ضحكة باغتته : اخرس ولا تستهزئ بخالك!

(صالح) : كيف حال أمك؟

(بندر) ببرود : أمي توفيت يا خال ..

عاود (صالح) البكاء مرة أخرى وبصورة أقوى ..

(فهد) بتجهم : ماذا كنت ستخسر لو أنك قلت له إنها بخير؟!

(بندر) زافراً : لن نستطيع الحصول على شيء والخال بهذه الحالة

أغمض (صالح) عينيه وأسند ظهره للوسادة خلفه وبدا أنه سيأخذ غفوة ..

(فهد) بقلق : هل تعتقد أنه بخير؟

(بندر) مبتسماً بحزن : الخال كبر بالسن فقط .. هيا لنذهب

نهض الاثنان وخلال نهوضهما دخل زوج ابنة (صالح) حاملاً صينية الشاي والقهوة وقال باندهاش : «إلى أين؟! .. لقد وصلتما للتو!»

(فهد) : نعتذر .. سوف نزور الخال في وقتٍ آخر عندما يكون مرتاحاً

بعد ركوبهما السيارة وضع (بندر) قبضتيه على المقود وحدق أمامه قائلاً :

«ما قصة «سعد الدَّبَّاس» الذي كان الخال يصرخ باسمه؟ .. هل تعتقد أنه الصبي الذي كان في الصورة؟»

(فهد) مخرجاً هاتفه المحمول من جيبه دون اكتراث : لا أعرف ..

(بندر) : بمن ستتصل؟

(فهد) خلال إجراء اتصال ما وعيناه على شاشة الهاتف : خذني فقط لشقتي .. أريد أن أنام

(بندر) : تنام؟ .. الوقت لا يزال مبكراً .. إنها الثامنة والنصف مساءً

(فهد) : أعرف لكني منهك

(بندر) : ماذا عن قصة الصورة؟

(فهد) واضعاً الهاتف على أذنه موجهاً نظره لأخيه : لم يعد هناك قصة .. انسَ الأمر

قاد (بندر) السيارة وأقل أخاه لشقته وبعد ترجله منها أسند ذراعيه على النافذة المفتوحة وقال : «كانت مغامرة جميلة .. ذكرتني بألاعيبنا عندما كنا صغاراً ..»

(بندر) باسماً : لا تغب طويلاً عنا وتغرق في مشروعك الجديد

(فهد) ضاحكاً : أي مشروع منهما تقصد؟

(بندر) : أيّاً كان .. أراك الأسبوع القادم عند (عائشة)

(فهد) يهز رأسه بالموافقة : سأكون حاضراً بإذن الله .. تصبح على خير

قاد (بندر) سيارته مبتعداً عن العمارة السكنية بينما سار (فهد) نحو مدخلها للتوجه لشقته في الطابق السابع.

منذ وقوف (فهد) أمام المصعد وكبسه لزر جلبه من الطوابق العليا انتابه شعور غريب .. خليط من التوجس والريبة لم يجد له مبررًا أو سببًا لكنه شعور خالجه وتصاعد كلما تقدم أكثر فبعد دخوله للمصعد وضغطه على دائرة الطابق (٧) لم يغلق الباب في الحال كما هو معتاد ومهما كرر المحاولة بقي المصعد مفتوحاً على مصراعيه فهم بالخروج منه لاستخدام السلالم لكن وفجأة انتفضت الأبواب وأغلقت أمامه

وبدأ المصعد بالتحرك للأعلى. لاحظ (فهد) أن المبنى كان هادئًا بشكل لافت وعلى غير العادة فبالرغم من أنه أعزب إلا أن تلك العمارة يقطنها الكثير من العوائل وأصواتهم وتحركاتهم كانت تضفي على المكان نوعاً من الحيوية وكل ذلك فقد وانعدم تلك الليلة لكن الأمر لم يثر قلقه وعزا ذلك للمصادفة لا أكثر.

توقف المصعد عند طابقه وفُتح بابه ليرى أن الممر المؤدي لشقته مظلم بالكامل. بقي عدة ثوانٍ وسط المصعد ولم يخرج محاولاً استكشاف الممر بنظره لكنه في النهاية قرر التقدم مستعيناً بضوء الكشاف في هاتفه. ما أن خرج من المصعد حتى أغلق الباب خلفه محولاً المكان لعتمة كاملة وهذا الأمر لم يكن منطقيًّا كذلك لأن بعض الشقق المجاورة له من المفترض أن يصدر منها بعض الضوء من خلال الشقوق أسفل أبوابها لكن ذلك لم يحدث وكأن تلك الشقق خاوية ومهجورة.

تجاهل (فهد) كل الأمور المريبة حوله وتوجه لباب سكنه ووقف أمامه مخرجًا سلسلة مفاتيحه التي كسر رنين خلخلتها الهدوء المزعج في الممر وفتح باب الشقة ودخل بحذر ليجدها مظلمة هي الأخرى بالرغم من أنه يترك الأنوار مضاءة دائماً عند خروجه حتى وإن كان ذلك في النهار فبدأ يشك بأن هناك لصّاً قد اقتحم المكان وعبث في شقته فمد يده جانباً متحسساً الجدار بحثاً عن قابس النور ليشعله. فتح (فهد)

أنوار غرفة المعيشة والتفت يميناً وشمالاً لتفقد المكان خلال وقوفه عند المدخل وظلام الممر خلفه قد ازداد حلكة.

بعد أن أخذ أول خطوة لوسط الشقة بدأت أنوار غرفة المعيشة بالرمش بشكل سريع ومتكرر قبل أن تعاود الاستقرار مما زاد من كثافة التوتر في صدر (فهد) الذي هم بالتوجه لغرفة نومه لينتهي من هذا اليوم بالخلود للنوم لكن استوقفه سماع صوتٍ خفيض وسط ذلك الهدوء الصارخ .. صوت تحرك مفتاح قابس النور بالمطبخ الذي أضاء جزءاً من الممر المؤدي لغرفته. وقف (فهد) يراقب الضوء الذي بُسط على أرض الممر أمام باب المطبخ المفتوح وهو في حالة من الجزع والرهبة لكن ذلك لم يثنِه عن استكشاف الأمر والتقدم بخطوات بطيئة وحذرة بأعين مترقبة حتى وقف أمام المدخل ورأى منظراً تركه متسمراً ومحدقاً برعبٍ شديد.

رأى ما يشبه الصبي الصغير تلطخ جسده بمادة سوداء وظهره مدار له. بدأت يد (فهد) بالارتجاف وهو يشاهد ذلك الصبي يدير رأسه نحوه كاشفاً عن وجهه المشوه بعدد من الجروح والكدمات المتعفنة أتبعها بابتسامة ناقصة الأسنان. شد (فهد) بقبضته هاتفه وبدأ يحاول هز ظهره لحث جسده على الهرب لكن صاعقة الرعب التي أصابته شلت أطرافه مانحة الوقت الكافي لذلك الصبي أن يبدأ بالسير نحوه

رافعاً كفه باسماً بفم سالت منه مادة سوداء لزجة وهو يقول بصوت متذبذب ومخيف : «أريد أن ألعب معك؟»

أطلق (فهد) صرخة مدوية قبل أن تحط يد الصبي عليه وتمكن بعدها من كسر جمود جسده والجري بسرعة هارباً ولم يتوقف عن الهرولة حتى أصبح وسط الشارع عند مدخل العمارة وبعد أن التقط أنفاسه مد يده في جيبه ليتصل بـ (بندر) فتذكر أنه أسقط هاتفه في الممر خلال هربه فوجه نظره لمحطة وقود قريبة منه وقرر السير نحوها للبحث عن وسيلة ما للتواصل مع أخيه.

في تلك الأثناء وصل (بندر) لبوابة السكن الجامعي حيث كان يقيم في غرفة مشتركة مع أحد زملائه وبعد توقفه عند نقطة التحقق من هوية الزائرين أخرج بطاقة التعريف الخاصة به ومدها للحارس الذي كانت تربطه به علاقة جيدة فأخذها منه وقال بنبرة مستغربة :

«متى خرجت؟»

(بندر) باسماً : مثل كل يوم جمعة .. أول الصباح كي أشارك عائلتي اجتماعهم الأسبوعي

(الحارس) : لا لم أقصد ذلك .. أقصد متى خرجت بعد عودتك؟

(بندر) باستغراب : عودتي؟ .. أنا لم أعد منذ خروجي صباحاً إلا الآن

(الحارس) : كف يا (بندر) عن ألاعيبك .. هل هذه إحدى مزحاتك السخيفة؟

(بندر) : ألاعيب ماذا؟

(الحارس) مشيراً للمبنى السكني على بعد منه بالبطاقة التي بيده :
«قبل ساعتين شاهدتك بعيني تسير نحو المبنى ..»

(بندر) بتعجب : أسير؟

(الحارس) : نعم .. أتيت عند البوابة مشياً وأخبرتني بأن سيارتك تعرضت لعطل ما وأنك بحاجة للدخول بسرعة لجلب شيء مهم

(بندر) : هذا لم يحدث .. ثم كيف سمحت لي بالدخول بدون بطاقة؟

(الحارس) متفكراً : على ما أذكر لقد أبرزتها لي

(بندر) بتهكم : على ما تذكر؟ .. من منا يتلاعب بالآخر الآن؟ .. افتح البوابة ودعني ألحق على ما تبقى من ساعات الليل لأنام

(الحارس) معيداً البطاقة له : أنا لا أتلاعب بك .. أنا متيقن من أنك كنت هنا قبل ساعتين

(بندر) محركاً سيارته : وأنا متيقن من أنك بحاجة للنوم مثلي

أوقف (بندر) سيارته في المواقف المخصصة وترجل منها وسار نحو

مدخل السكن الطلابي متوجهاً لغرفته في الطابق الثالث مستخدماً السلالم لأن المبنى لم يكن به مصعد كهربائي لقدم تصميمه. بالرغم من أن الوقت لم يكن متأخراً وتجاوز فقط التاسعة بعدة دقائق إلا أن أروقة كل طابق تجاوزه كانت هادئة وشبه خالية عدا من بعض الطلاب الذين ساروا بهدوء من غرفة لأخرى وهذا لم يكن مألوفاً في مبنى كهذا وفي الوقت نفسه عزا ذلك إلى أنه يوم جمعة وأغلب الطلاب من خارج المدينة يسافرون لزيارة أهاليهم فلم يكترث كثيراً لتلك الملاحظة.

وصل (بندر) لباب غرفته ووجد أنه مُفتوح جزئيّاً وهذا أمر طبيعي كذلك في مثل هذه المباني السكنية خاصة وأن هناك من يشاركه الغرفة وتردد الطلاب بين غرف بعضهم وبعض عادة مألوفة ومتكررة ويفضل البعض ترك الغرف مفتوحة كي لا يتكبد عناء النهوض لفتح الباب لكل طارق. عند دخوله الغرفة شعر (بندر) بحر شديد مغاير للجو العام وعزا ذلك لجهاز التكييف المطفأ وبدأ بخلع ملابسه للاستعداد للنوم وخلال قيامه بذلك رمق بنظره سرير زميله ووجد أنه نائم عليه متكوراً ببطانية ثقيلة فقال بخليط من الاستغراب والتهكم:

«هل جننت؟ .. كيف تنام في هذا الجو الحار بتلك البطانية؟ .. هل أنت مريض؟»

لم يجب زميله أو يتحرك فتبسم (بندر) وأكمل تبديل ملابسه وأخرج مفاتيحه ومحفظته من جيبه ووضعهما على المنضدة ثم مد ذراعه مغلقاً الباب المشرع وقبل أن يتوجه لسريره سمع صوت سقوط شيء في دورة المياه المشتركة بينه وبين صاحبه في الغرفة فوجه نظره لباب الحمام أتبعه ببعض الخطوات نحوه.

فتح الباب وأشعل الإنارة لكنه لم يتقدم أكثر وبقي يجول بنظره بحثاً عمّا سقط ولم يعثر على شيء فهم بإغلاق الباب لكن وقبل أن يطبق درفته سمع قهقهة بسيطة ففتحه مرة أخرى وقال: «هل يوجد أحد؟!»

لم يجزع (بندر) كثيراً لأنه من المألوف أيضاً أن يستخدم بعض الطلاب من الغرف الأخرى دورات المياه لزملائهم عندما تكون حماماتهم مشغولة فهذا النوع من الاقتحام للخصوصية أمر معتاد لذا لم يخطر بباله أن ما يحدث يدعو للخوف أو القلق لكن ما حدث بعدها غير كل ذلك فقد تحركت مقابض الصنبور فجأة محدثة صريراً حادّاً وأخذ الماء ينهمر بغزارة مما دفعه للتقدم وإغلاقها وما أن فعل حتى عادت الضحكات الخفيفة وكانت آتية من خلفه فالتفت وراءه ولم يرَ شيئاً.

في خضم ذلك التوتر المتصاعد في قلبه سمع صوتاً آخر آتياً من وسط الغرفة لما بدا له كصوت صبي صغير يقول: «أريد أن ألعب معك..».

لم يتردد (بندر) بالخروج من الحمام بخطوات متسارعة لتفقد الأمر فشاهد أن باب غرفته قد فتح ودرفته قد وصلت لآخر مداها فتوجه نحو صاحبه ووضع يده عليه وهزه برفق محاولاً إيقاظه لكن لم يستجب فرفع الغطاء من على وجهه ليفاجأ بأن من كان مستلقياً على الفراش شخص يشبهه تماماً بل مطابق له بالملامح فقفز جزعًا للوراء وقبل أن يقوم بأي ردة فعل أخرى سمع دبيب جري في الممر فوجه نظره لفتحة الباب المشرع ليلمح خيالاً لما يشبه الرجل القصير يخطف أمامه مهرولاً وتزامن ذلك مع نهوض شبيهه من الفراش ببطء.

خارت قوى (بندر) وسقط على قفاه بعد أن فقد السيطرة على سيقانه وأخذ بالزحف مستعيناً بيديه للوراء حتى التصق ظهره بإحدى زوايا الغرفة وهو يراقب ذلك الرجل ينهض ويسير ببطء خارجاً من المكان.

حل الهدوء في كل الأرجاء وبقي (بندر) مكانه يرتجف خوفاً لينتفض مجدداً مفزوعاً عندما رن هاتفه النقال في جيبه فأخرجه ليرى رقماً غريباً لم يتعرف عليه وخلال تحديقه بالرقم على الشاشة متفكراً في خيار الإجابة من عدمه سمع الصوت يحدثه مجدداً وهو يقول: «لماذا لا تريد اللعب معي ..؟».

رفع رأسه ليرى صبيّاً صغيراً بملابس ملطخة بمادة سوداء لزجة ووجهه مشوه بعدة جروح متعفنة يتبسم له بفمٍ فقد بعض أسنانه.

أطلق (بندر) صرخة قوية عندما شاهد ذلك المنظر وقبض بكل قوته على هاتفه خلال صراخه مما أدى لفتح الخط على المتصل.

جرى الصبي وهو يضحك عائداً للممر تاركاً (بندر) يبكي ويشهق بقوة وبالرغم من حالته تلك لاحظ أن عداد الثواني على شاشته يتحرك فرفع السماعة ووضعها عند أذنه وقبل أن يقول شيئاً سمع صوت (فهد) يحدثه بقلق شديد: «هل أنت بخير؟! .. ما بك؟! .. لَمَ تصرخ؟!»

أجاب (بندر) بنبرة خالطها البكاء والانهيار: (فهد)؟! .. أين أنت؟! .. من أين تتصل؟!

(فهد): من المحطة المقابلة لمنزلي! .. هل عدت للسكن؟!

(بندر) وهو مستمر بالبكاء: نعم وأريد الخروج!

(فهد): حسناً! .. ابقَ مكانك ولا تتحرك! .. سوف آتي اليك!

(بندر) مستعيدًا بعض تركيزه: لا! .. أنا من سيأتيك! .. أين أنت؟

(فهد): أخبرتك .. محطة الوقود القريبة من سكني .. هل أنت واثق من أنك بخير؟

(بندر) ناهضا من مكانه وظهره لا يزال ملتصقاً بالجدار وعيناه على مدخل الغرفة:

«نعم .. انتظرني هناك أنا قادم إليك ..»

(فهد) قبل أن ينهي الاتصال: حسناً .. كن حذراً

أغلق (بندر) هاتفه ووضعه في جيبه وسار بحذر وتوتر شديدين نحو مخرج الغرفة آخذاً مفاتيحه ومحفظته في طريقه وعند وصوله لعتبة الباب أطل برأسه من الفتحة والتفت يميناً وشمالاً قبل أن يتوجه نحو السلالم المؤدية للطوابق السفلية. بعد انتصاف الطريق به نزولاً وتحديداً عند بداية الطابق الثاني وقعت عينه على كرة تتدحرج تجاهه. لم تخفه حركة تلك الكرة غير المنطقية لكن ما أثار فزعه بحق هو أنها نفسها الكرة التي وجدها مع (فهد) في بيتهم القديم ذلك الصباح.

أخذ نفساً عميقاً وزفره متجاوزاً تلك الكرة المتدحرجة مكملاً سيره نزولاً للطابق الأول وقبل أن يتوجه لبداية السلالم المؤدية للطابق الأرضي للنزول منها ظهر ذلك الصبي أسفلها وشاهده يصعد السلالم متوجهاً نحوه. لم يستطع (بندر) تجاهل ما يحدث أمام عينيه وجرى عائداً للطابق الأول حيث شاهد الكرة ووقف يراقب نهاية السلالم وهو يتنفس بثقل حتى أقبل الصبي الذي توقف رافعاً ذراعيه

باسطاً كفوفه. شعر (بندر) بأن نهايته قد أوشكت وأنه لن يخرج سالماً
من المبنى لذا وفي لحظة يأس أمسك بالكرة وركلها تجاه الصبي بقوة
وما أن ارتطمت بوجهه حتى أطلق ضحكات عالية ومخيفة بصوت
محشرج وكأنه يغرق تبدد بعدها خياله واضمحل في الهواء وكأنه
دخان متطاير.

انتهز (بندر) الفرصة ولم يفكر طويلاً فيما حدث وجرى بكل سرعته
ولم يتوقف حتى خرج من بوابة المبنى وركب سيارته وأدار محركها
وقبل أن يتحرك من المواقف لمح الصبي يخرج من السكن هو الآخر
ويسير تجاهه. لم يتردد (بندر) لثانية وقاد سيارته نحو البوابة الرئيسة
وقبل أن يصل إليها اعترض الصبي طريقه وظهر وسط الطريق فلم
يتوقف بل زاد من سرعته ودهسه بسيارته التي اهتزت بقوة وكأنها
قد تجاوزت مطبّاً كبيراً. بوابة سكن الطلاب في العادة لا تطلب من
الخارجين التوقف للتحقق من هويتهم لذا استمر (بندر) بالانطلاق
بأقصى سرعة متوجهاً للمحطة التي قال (فهد) بأنه ينتظره عندها.

صوت صفير فرامل سيارة يصدح في المكان عندما أوقف (بندر)
سيارته أمام المحطة ليظهر (فهد) جرياً نحو أخيه المراقب له وقبضتاه
تشدان على مقود السيارة بقوة. ركب (فهد) وما أن أغلق الباب خلفه

حتى صاح فيه (بندر) قائلاً :

«ما الذي يحدث؟!»

أمضى الاثنان عدة دقائق يتحدثان ويتبادلان فيها الأحداث التي عصفت بهما في الساعات الأخيرة ووصلا لاستنتاج مشترك ..

(بندر) : ذلك الصبي الذي ظهر لي ولك .. أنا واثق من أنه نفسه الصبي الذي كنا نبحث عنه

(فهد) : تقصد الصبي في الصورة؟

(بندر) : هو بعينه

(فهد) : ماذا تريد أن تقول؟ .. أن شبحه يطاردنا؟ .. ولماذا؟

(بندر) : الإجابة عند (عائشة) و(عبد الرحمن) .. يجب أن نواجههما في أسرع وقت ونجبرهما على قول الحقيقة

(فهد) : حقيقة ماذا؟

(بندر) محركاً سيارته : حقيقة «سعد الدَّبَّاس» ..

بعد ابتعادهما عن المحطة لمسافة بسيطة قال (فهد) : إلى أين أنت ذاهب الآن؟

(بندر) ونظره على الطريق أمامه وبوجه متجهم :

«لمنزل (عائشة) .. أريد الحديث معها بدون وجود (عبد الرحمن) ..»

(فهد) : لماذا؟

(بندر) : لأنه من الواضح أنهما يعرفان شيئاً و(عبد الرحمن) لن يقر بذلك ووجوده سوف يؤثر على أختنا الكبرى لكن لو تحدثنا معها وحدها فقد نتمكن من حثها على كشف سر هذا الصبي

(فهد) متحسساً جيبه : أعطني هاتفك .. لقد نسيت هاتفي في الشقة

(بندر) مخرجاً هاتفه من جيبه : بمن ستتصل؟

(فهد) آخذاً هاتف أخيه : بـ (سارة) ..

(بندر) موجهاً نظره لساعة السيارة التي تجاوزت العاشرة بعدة دقائق :

«لا تخبرها بشيء عما ننوي القيام به .. فقط قل لها بأننا قادمان لزيارة اعتيادية»

(فهد) والهاتف عند أذنه ونظره تجاه أخيه : إنها لا تجيب .. لعلها نامت

(بندر) : كيف نامت؟ .. لقد قالت بأنها ستسهر الليلة لتذاكر لاختبارها غداً

(فهد) منهياً المكالمة : ربما وضعته على الوضع الصامت كي لا يزعجها أحد خلال مذاكرتها

(بندر) : لا يهم .. لقد اقتربنا على أي حال ..

الدبق الأسود



في الطابق الثاني من منزل (عائشة) استلقت (سارة) على سريرها تتصفح بتململ المنهج الذي ستختبر فيه صباح اليوم التالي وهي تنصت لمجموعة من الأغاني المفضلة لها عبر سماعات صغيرة في أذنها وخلال قيامها بذلك شعرت أن هناك صوتاً آخر في الغرفة تداخل مع ما كانت تسمع فأوقفت الموسيقى والتفتت حولها متفقدة المكان بنظرها لكنها لم ترَ أو تسمع أي أمرٍ خارجٍ عن المألوف.

أزالت إحدى السماعات من أذنها للتحقق ولم تسمع سوى الهدوء التام فأعادتها واستمرت في القيام بما كانت تقوم به لكن لم تمضِ دقيقة حتى أحست مجددًا أن هناك صوتاً من الخارج يتداخل مع ما كانت تسمعه

عبر السماعات فخلعت السماعة مرة أخرى واعتدلت في جلستها وحاولت التركيز والإنصات أكثر بالبقاء مدة أطول للتثبت لكنها لم تسمع أي شيء يؤكد شكوكها فقالت محدثة نفسها :

«كان يجدر بي النوم ظهراً كما خططت مسبقاً .. يبدو أني أحتاج بعض القهوة السوداء .. بدأت أفقد عقلي ..»

عاودت الاستلقاء على السرير ووجهت نظرها لصفحة الكتاب المفتوح بين يديها وقبل أن تهم بإعادة السماعة لأذنها اهتز باب الغرفة بقوة وكأن شيئاً قد ارتطم به فرمت الكتاب على الفراش وصرخت :

«من هناك؟!»

شعرت (سارة) بالرعب لأنها كانت وقتها وحدها في المنزل بعد خروج أختها الكبرى في مشوارٍ ما ..

أغلقت الكتاب ووضعته على السرير ونهضت من مكانها وسارت نحو الباب ونظراتها المتوجسة منصبة عليه ووقفت أمامه تتأمله بخليط من العجب والتوتر وقامت برفع كفها ووضعتها على سطح الباب الساكن متفكرة في خياراتها وقبل أن تقرر اهتز مجدداً بقوة أكبر دفعتها للتراجع عدة خطوات للوراء مغطية فمها لكبت صرخة باغتتها.

استمر الباب بالاهتزاز والارتجاف تبعه تحرك بطيء لمقبضه وكأن أحداً

يحاول فتحه فاتسعت عيناها وهي تشاهد ذلك المنظر وجرت تبحث عن هاتفها الذي تركته على السرير وهمت بالاتصال على أختها لكن وقبل أن تفعل اصطدمت درفة الباب بقوة في الجدار وانطفأت أنوار الغرفة لكن أنوار الممر بقيت مضاءة كاشفة عن صبي صغير يقف عند المدخل لم تتضح ملامحه بالكامل لكن صوته الموجه لها كان واضحاً وهو يقول:

«أريد اللعب معكِ ..»

لم تتمالك (سارة) نفسها وخرت مغشيّاً عليها وفقدت الوعي ..

فتحت عينيها بعد وقت مجهول لها ووجدت أن لا شيء تغير حولها .. فالغرفة لا تزال مظلمة ونور الممر المضاء أنار جزءاً منها من خلال الباب المشرع فنهضت ببطء وحذر حاملة هاتفها بيمينها ونظرها يحدق بمدخل الغرفة وهي تسير نحوه وإحدى السماعات تتدلى من أذنها.

خرجت من الغرفة وسارت باتجاه السلالم المؤدية للطابق السفلي بعد ما تثبتت من خلو الممر من أي أحد وكان هدفها هو الخروج من المنزل للفناء الخارجي بأسرع وقت لكنها فوجئت بأن الأبواب والنوافذ مقفلة بالرغم من أنها لم تكن كذلك سابقاً.

بعد عدة محاولات يائسة لإدارة مقبض باب المنزل الداخلي استدارت

وألصقت ظهرها به وجالت بنظرها حولها وهي تتنفس بثقل تتفحص غرفة المعيشة الكبيرة التي حط عليها هدوء وسكون خانقان ولم يكن يسمع سوى دقات عقرب الثواني لساعة حائط قديمة معلقة بجانبها. كُسر ذلك الهدوء بصوت دبدبة بطيئة أتت فجأة من الطابق العلوي وكانت تلك الأصوات تزداد في القوة وتقترب تدريجيّاً منها واتضح أنها لشيء يصطدم بعتبات السلم وبعد عدة ثوانٍ ظهر ذلك الشيء وهو كرة قديمة رثة ترتطم على الدرجات نزولاً حتى اصطدمت بالعتبة الأخيرة وتدحرجت نحوها فاقشعر بدنها وهي تراقبها تدنو منها وتتوقف قبل ملامسة أطراف أصابع أقدامها الحافية وما زاد من رهبتها هو وجود بعض النقاط السوداء اللزجة على الكرة وبينما كانت تتفحص تلك النقاط بوجه متعجب ومترهب سمعت صوت الصبي الذي حدثها سابقاً في الغرفة يكرر عليها الجملة نفسها قائلاً من خلال السماعة في أذنها :

« أريد اللعب معكِ .. »

صرخت (سارة) بقوة وشدت السماعة من أذنها ورمت بها على الأرض وجرت نحو المطبخ وسحبت أحد السكاكين وهي تبكي بشدة ورفعت هاتفها لتتصل بالشرطة لكنها توقفت عندما شاهدت منظراً جمد الدم في عروقها وشل أطرافها جزعًا. شاهدت باب الفرن يفتح ببطء محدثًا

صريراً حاداً أطل على أثره ذلك الصبي برأسه وتمكنت وقتها من رؤية تفاصيل وجهه وجزء من جسده وهي نفسها التي شاهدها أخواها من قبلها .. صبي صغير بملابس ملطخة بمادة سوداء لزجة وعلى وجهه آثار التعفن ومعظم أسنانه مفقودة.

بالرغم من أن الرعب الذي هجم على صدرها وأطبق على قلبها كان أكبر مما تحتمل إلا أنها لم تفقد توازنها وجرت نحو الفرن وأغلقته مديرة المقبس مشعلة النار وسطه. بدأ الصبي بالصراخ والعويل والضرب على بابه الصغير بعنف صاحبه ارتعاش واهتزاز في أنوار المنزل كلها قبل أن يتوقف كل شيء في الوقت نفسه.

.. الصراخ .. الأنوار .. الموقد ..

كلها توقفت دفعة واحدة تاركة (سارة) الممسكة بالسكين بيد وهاتفها باليد الأخرى واقفة في ظلام دامس لعدة ثوانٍ بجبين متعرق قبل أن تتأقلم عيناها على العتمة لتتمكن من رؤية الطريق المؤدي لغرفة المعيشة لتسير مجدداً نحو مخرج المنزل الداخلي لإعادة المحاولة وهذه المرة تمكنت من إدارة المقبض لكن وقبل أن تفتح الباب سحبها شيء ما بقوة للخلف ورمى بها على إحدى الأرائك مسقطًا من يديها السكين والهاتف الذي بدأ يرنّ وشاشته المضاءة أظهرت اسم (بندر).

وصل أخواها عند منزل أختهما الكبرى (عائشة) وترجلا من السيارة على الفور وعند وقوفهما أمام الباب وقبل أن يطرقه أحدهما قال (فهد) متسائلاً بعد ما رفع نظره للأعلى :

«لِمَ كل أنوار المنزل مطفأة؟ .. هل الكهرباء مقطوعة عن الحي؟»

(بندر) ونظره على بقية بيوت الحارة : لا .. فقط منزل (عائشة)

(فهد) طارقاً الباب بقبضته : (عائشة)! .. (سارة)! .. افتحا الباب!

(بندر) : لِمَ لا تستخدم الجرس؟

(فهد) وهو مستمر بالطرق بعد ما أدار نظره نحو أخيه وقال متهكماً : كيف دخلت كلية الطب؟

(بندر) وهو يشاركه الطرق : حسناً .. حسناً .. لا تلمني فهذه الليلة ليست طبيعية

بعد محاولات عدة فقد الاثنان الأمل بأن يتلقيا إجابة ..

(بندر) : لعلهما خرجتا

(فهد) : وأين ستذهبان في هذه الساعة؟ .. ومع من؟ .. لا .. فهما لم تعتادا على الخروج في مثل هذا الوقت

(بندر) : وما أدراك أنت بعوائدهما؟ .. لقد انتقلت لشقتك منذ أكثر

من أربعة أشهر .. الكثير قد يحدث خلال ذلك

(فهد) بتجهم : هل تلمح إلى أني لا أعرف شيئاً عنهما؟!

قبل أن يجيب (بندر) على أخيه سمع الاثنان صوت قفل الباب يتحرك تبعته حركة درفته ببطء صاحبها صرير مخيف ولم تتوقف حركته حتى فتح الباب بالكامل ..

نظر الاثنان لوسط المنزل المظلم ثم وجها أنظارهما بعضهما لبعض بأعين مترهبة ولم يقل أحد منهما شيئاً لعدة ثوانٍ حتى كسر (فهد) الصمت قائلاً : هل تظن ..؟

(بندر) مقاطعاً بصوت راجف وخفيض :

«لا تزرع أي أفكار برأسي .. لندخل فقط ولنطمئن على أختينا ..»

دخل الأخوان لوسط المنزل المظلم وبعد تفقد وجيز في العتمة اشتعلت أنوار المنزل كلها دفعة واحدة فقال (بندر) بعد ما رفع رأسه للأعلى : يبدو أن الكهرباء عادت ..

(فهد) جائلاً بنظره متفحصاً المكان : وهل كانت مقطوعة من الأساس؟

(بندر) : ماذا تقصد؟

(فهد) بنبرة مرتفعة مشيراً بسبابته لمدخل غرفة المعيشة : انظر!

جرى (فهد) ومن خلفه (بندر) لوسط غرفة المعيشة بعد ما لمحا أثاثها المقلوب وشاهدا أختهما ملقاة على الأرض فاقدة للوعي ومع اقترابهما منها أكثر لاحظا أن وجهها وملابسها تغطت بمادة سوداء لزجة وبعد أن حمل (فهد) رأسها بكفه ووضعه على حجره مسح بأنامله على تلك المادة وقال محدثاً نفسه بصوت مسموع لأخيه : «ما هذا؟ .. ما الذي حدث هنا؟»

(بندر) بقلق : هل ماتت؟

(فهد) مقرباً أذنه من أنفها : لا .. إنها لا تزال تتنفس

(بندر) : هيا لنأخذها للمستشفى في الحال!

في تلك اللحظة بدأت (سارة) تسعل وكأنها غريق قد استنشق الهواء للتو ..

(فهد) ماسحاً على جبينها : هل أنتِ بخير؟ .. أين (عائشة)؟

(سارة) فاتحة عينيها ببطء بوجه تائه : أين أنا؟

(بندر) : أنتِ في مأمن الآن .. هل تذكرين شيئاً مما حدث هنا؟

(سارة) : كان يلاحقني ..

(فهد) : من؟ .. من كان يلاحقك؟

(سارة) : لا أعرف .. صبي صغير مخيف ..

نظر (فهد) لـ (بندر) وقال : لقد تعرضت لنفس ما تعرضنا له

(بندر) : إنه «سعد الدَّبَّاس» ..

(سارة) : سعد من؟

(بندر) جاثياً عند أخته متفحصاً حالتها : هل تشعرين بأي غثيان أو صداع؟

اعتدلت (سارة) في جلستها ملاحظة المادة السوداء اللزجة المغطية لها وقالت :

«لا .. ما هذه المادة الملتصقة بي؟»

مسح (بندر) بسبابته بعض تلك المادة وهم بتقريبها من فمه لكن (فهد) أمسك يده وقال : ماذا تفعل؟!

أكمل (بندر) ما كان يقوم به واضعاً سبابته على طرف لسانه متذوقاً تلك المادة السوداء ..

راقبت (سارة) و(فهد) أخاهما الذي قال : «إنها حلوة المذاق .. كالعسل الأسود ..»

(فهد) : ماذا تريد أن تقول؟

(بندر) موجهاً حديثه لأخته : أين (عائشة)؟

(سارا) : خرجت

(فهد) باستغراب : خرجت؟ .. في هذه الساعة؟ ... ووحدها؟

(بندر) : إلى أين ذهبت؟

(سارا) : لا أعرف .. أخبرتني أن لديها مشواراً مهمّاً وقد تتأخر

(فهد) : كل ما حدث اليوم ليس مصادفة وهناك ترابط بينها .. أنا متيقن من أن هناك شيئاً يخفيانه علينا

(بندر) : من تقصد؟

(فهد) : (عائشة) و(عبد الرحمن) .. منذ أن عرضنا عليهما تلك الصورة هذا الصباح والأمور في تدهور مستمر .. أنا متيقن من أنهما يملكان الإجابة

(سارة) : هل تقصد أنهما يعرفان الصبي في الصورة؟

(فهد) : نعم .. وقد تأكد الآن أنه هو من هاجمنا الليلة

(بندر) : نعم لكن لماذا؟

(فهد) ناهضاً من مكانه : هذا ما سنجبر أخوينا الكبيرين على إخبارنا به

(بندر) : وأين سنجدهما في هذه الساعة؟ .. هل أتصل بهما؟

(فهد) : لن يجيب أحد منهما عليك .. لكن لدي حدس قوي عن مكان وجودهما

(سارة) : أين؟

(بندر) مستوعباً قصد أخيه : منزلنا القديم ..

سر الجرة



ركب الثلاثة سيارة (بندر) بعد ما اغتسلت (سارة) واستبدلت ملابسها وكانت النية هي أن يأخذاها لبيت أحد أقاربهم لكنها أصرت على مرافقتهما عندما علمت بأنهما ينويان الذهاب لمنزلهم القديم لإحساسهم القوي بأن ما يحدث لهم له علاقة به وأن (عائشة) و(عبد الرحمن) يخفيان سرّاً ما وأنهما غالباً موجودان هناك. خلال الطريق حكت لهما أختهما ما حدث معها بالتفصيل مما زاد يقينهما أن الأمر له علاقة بالصبي في الصورة خاصة بعد تطابق وصفها لشكله مع ما شهداه بأنفسهما.

عند وصولهم لحيهم القديم واقترابهم من بيتهم الطيني ظهرت لهم في الأفق سيارة أخيهم الأكبر فقال (فهد) :

«كما توقعت .. كنت واثقاً من أني سأجده هنا وأنا واثق من أن (عائشة) معه»

(سارة) من المقعد الخلفي : نعم لكن لماذا عادا إلى هنا؟

(بندر) : هذا ما سنعرفه منهما الآن وسنعرف ما هي علاقتهما بذلك الصبي في الصورة

(سارة) : ولو أنكرا كما فعلا اليوم؟

(فهد) مخرجاً الصورة من جيبه محدقاً بها : لا مجال للإنكار بعد ما شاهدنا ما شاهدناه .. هيا بنا

(سارة) بتردد : أنا خائفة ..

(بندر) ملتفتاً نحو أخته : ابقي هنا إذاً حتى نعود

(سارة) بتوتر : سأصاب بالرعب لو بقيت هنا وحدي!

(بندر) بعصبية : أنتِ من أصر على القدوم معنا!

(فهد) معيدًا الصورة لجيبه : هل تريدين أن نعيدك للمنزل؟

(سارة) : لا .. أفضل البقاء معكما على أن أعود

(بندر) موجهاً نظره لأخيه : كان ذلك الحوار مضيعة للوقت أليس كذلك؟

(فهد) فاتحاً بابه : لنأمل أن الحوار التالي سيكون مثمراً أكثر

(سارة) متجهمة : ماذا تقصدان؟!

ترجل الإخوة من السيارة وساروا نحو منزلهم الطيني القديم متجاوزين سيارة (عبد الرحمن) المركونة أمامه وعند وقوفهم أمام بابه الحديدي الكبير قال (بندر) وهو يتأمل نقوشه : ماذا الآن؟

(فهد) يشاركه التأمل : نطرق الباب على ما أظن

سارت (سارة) بينهما ودفعت درفة الباب وهي تقول : الباب مفتوح ..

(فهد) وهو يتبع أخته للداخل : كنت أظنكِ خائفة

بعد عدة خطوات قادتهم لفناء المنزل ذي السقف المفتوح وصلوا حيث كانت الطاولة الخشبية والكراسي البلاستيكية التي اجتمعوا حولها ظهر ذلك اليوم وبالرغم من أن الأنوار لم تكن مضاءة إلا أنهم وبسبب ضوء القمر المكتمل تمكنوا من رؤية خيال شخصين يجلسان بعضهما بجانب بعض .. (عائشة) و(عبد الرحمن) ..

(عبد الرحمن) بعد ما تعرف على ملامح إخوته وبنبرة متعجبة : ما الذي أتى بكم؟

(عائشة) : ماذا تفعلون هنا؟

(فهد) : كنت سأسألكما السؤال نفسه .. ما الحكاية؟

صمت الاثنان بعد ما حدقا بعضهما ببعض لثوانٍ أنزلت بعدها (عائشة) رأسها تاركة (عبد الرحمن) يقول :

«أتينا لمناقشة بعض الأمور الخاصة بإزالة المنزل .. فقط لا أكثر ..»

(بندر) : نريد الحقيقة يا أخي .. الحقيقة ولا غيرها

(عبد الرحمن) بتجهم : هل تتهمني بالكذب؟! .. وعن أي حقيقة تتحدث؟!

(فهد) مخرجًا الصورة ملوحاً بها :

«ما حكاية هذا الصبي الذي يظهر خلفك وخلف (عائشة) في الصورة؟ .. لقد هاجمني أنا و(بندر) و(سارة) الليلة ونحن واثقون من أنه الصبي نفسه .. وما زاد من ثقتنا اجتماعكما المريب هنا وفي هذه الساعة في منزلنا القديم .. ماذا تخفيان علينا؟»

(عائشة) ورأسها لا يزال منزلاً ونظرها لحجرها : (سعد) .. (سعد عاد

(سارة) : من يكون سعد هذا؟

(بندر) : سعد الدبَّاس .. أليس كذلك؟

(عبد الرحمن) باندهاش : كيف عرفت اسمه بالكامل؟

(فهد) : خالي (صالح) أخبرنا

(عائشة) رافعة رأسها وبنبرة قلقة : أخبركما؟! .. أخبركما بماذا؟!

(بندر) : لم ..

(فهد) مقاطعاً : أخبرنا بكل شيء لذا لم يعد هناك فائدة من إخفاء الأمر علينا أكثر .. نريد معرفة كل شيء وسماعه منكما الآن

(عبد الرحمن) زافراً : لم نكن نريد أن نخبركم بالحقيقة لنحميكم

(سارة) : تحموننا من ماذا؟

(عبد الرحمن) : اجلسوا وسأحكي لكم كل شيء

جلس الجميع حول الطاولة الخشبية وأنصتوا لأخيهم الأكبر وهو يروي حكاية (سعد الدَّبَّاس) ..

(عبد الرحمن) : (سعد) كان ابن بائعة الدبس في حينا ومن هنا أتت تسميتهم بـ (الدباس) فذلك لم يكن لقب عائلتهم بل لقباً ارتبط بهم بسبب مهنة (أم سعد) وقد كانت امرأة تجول على البيوت لعرض منتجاتها المنزلية من الحلويات والتمور ومشتقاتها وكان (سعد) فتى

يتيماً ونادراً ما نراه يخالط أطفال الحي للعب معهم لأن أمه لا تفارقه أبداً ولا تسمح له بالخروج أو الابتعاد عنها ولم يكن يرى الشارع إلا خلال جولاتها تلك لذا كان يتحمس كثيراً عندما تطيل أمه البقاء في أحد المنازل للتفاوض على الأسعار مع زبائنها ويقضي تلك الدقائق المعدودة في التعرف على أطفال ذلك المنزل وسرقة لحظاتٍ من اللعب معهم قبل أن تنهره وترحل معه لمنزل آخر.

لم تكن (أم سعد) أمًّا قاسية لكن خوفها على ابنها الوحيد كان مبالغاً فيه لدرجة أنه عندما خرج يوماً للعب مع بعض الصبية المجتمعين أمام بيتهم فقدت رشدها وعاقبته بشدة وعاقبت كذلك البيوت التي انتمى إليها هؤلاء الأطفال بأن منعت عن أهلهم بيع منتجاتها لمدة شهر كامل.

حُرم (سعد) من الدراسة وقتها كذلك للسبب نفسه لذا عندما شاهد أختي (عائشة) يوماً تلعب لعبة «المدرسة» مع بعض الفتية والفتيات في فناء منزلنا تحمس كثيراً وجلس معهم مبهوراً بينما ناقشت أمه مع أمي صفقة شراء بعض التمر وبعد ما انتهت نادت عليه ليلحق بها لكنه أبى ولم يستجب لها مما دفعها للسير نحوه وشده من يده للرحيل معها عنوة لكنه وعلى غير العادة بكى وصرخ فيها قائلاً: «أريد أن ألعب! .. اتركيني»

همت (أم سعد) بضربه لكن أمي تدخلت وبحكم علاقتها الجيدة معها تمكنت من إقناعها بتركه معنا حتى نهاية اليوم والعودة له لاحقاً بعد ما تنتهي من جولتها. بالرغم من ممانعتها الشديدة في البداية إلا أن قلبها رق لسبب ما ووافقت على طلب أمي بعد أن قطعت لها وعوداً مغلظة بأنها ستعتني به ولا تسمح له بالخروج حتى تعود. رحلت (أم سعد) ومع رحيلها انطلق ابنها ولعب معنا .. كان يضحك كثيراً .. أذكر ذلك جيداً .. لا أعرف هل كان ذلك بسبب سعادته أم أن عقله مصاب بخللٍ ما بسبب طريقة تربية أمه الخانقة له.

على أي حال .. قبل المغرب بقليل رحل جميع الأطفال ولم يتبقَّ سواي أنا و(عائشة) وبالطبع (سعد) وعندها زارنا خالي (صالح) ليُري أبي كاميرته الجديدة التي اشتراها حديثاً وفي ذلك اليوم التقط لنا تلك الصورة مع (سعد) .. الصورة التي معكم.

سكت (عبد الرحمن) عند هذه النقطة من القصة وبدا على وجهه الهم وكأنه تذكر أمراً نسيه وسبب له استذكاره ضيقًا شديداً .. بقي سارحاً حتى قاطع (فهد) سرحانه بقول :

«ثم ماذا حدث؟»

(عبد الرحمن) مستأنفاً بتثاقل وصوت أقل حماسة للحديث :

«سئمنا أنا و(عائشة) من اللعب معه لكن (سعد) كان لا يزال يتقد حماساً ويصر علينا بالاستمرار وأراد لعب الكرة تحديداً وردد: «أريد اللعب! .. أريد اللعب! ..» أخبرته بأنه يمكنه الاحتفاظ بالكرة كهدية مني لكني متعب ولا أستطيع اللعب معه أكثر لكنه أصر وأصر حتى ..»

(سارة): حتى ماذا؟

(عبد الرحمن): حتى حدث ما حدث ..

صمت الثلاثة بوجوه متسائلة ومتعجبة فقالت (عائشة) بصوت مشحون ومتحشرج بالدموع التي بدأت تنهمر على وجنتيها: «حتى قتلته ..»

(فهد) وهو مصدوم: قتلته؟!

(عبد الرحمن): كفي عن تكرار هذا الكلام .. أنتِ لم تقتلي أحدًا .. الأمر كله كان حادثًا مؤسفًا

(بندر): عن ماذا تتحدثان؟

(عائشة): كما قال أخي فقد ضقنا ذرعاً به وبإصراره على حثنا للعب معه وتكراره لتلك العبارة المزعجة: «أريد اللعب معكم .. أريد اللعب معكم ..» فأخبرته إن كان يريد منا اللعب معه فيجب عليه إحضار بعض الدبس لنا من منزل أمه .. كنت أريده أن يعود لمنزله كي

نرتاح .. كنت أريد التخلص منه ومن إزعاجه فقط ..

توقفت (عائشة) عن الكلام وأجهشت بالبكاء ..

(فهد) : كيف مات؟

(عبد الرحمن) : رحل متوجهاً لمنزله ولم يرجع بعدها عادت أمه في المغرب لأخذه وانفجرت غضباً في أمي عندما لم تجده وهددتها وتوعدتها بأنها ستقتص منها إن أصاب ابنها مكروه .. وقد أصابه .. الجرة كانت كبيرة ويبدو أن (سعد) حاول تسلقها لإحضار الدبس لنا وسقط وسطها وحشر بداخلها ومات غرقاً في الدبس الأسود.

بعد عودة أمه لمنزلها اكتشفت جثته المقلوبة في الجرة الفخارية عندما رأت أقدامه تُطل من فوهتها فجن جنونها وأخرجت جثته المغطاة بالدبس وأخذت تصرخ بقوة سمعها معظم جيرانها. حملته بعدها بين ذراعيها وسارت به نحو منزلنا وهي تصرخ وتنوح في الشارع جاذبة معظم سكان الحي الذين تجمهروا وساروا خلفها ووقفوا يراقبونها بعد ما وضعت جثة ابنها الهامدة أمام باب منزلنا وهي تطرق بابنا تهدد وتتوعد بالانتقام حتى خرج أبي لها وتشاجر معها واتهمها بأنها هي المهملة وأن لا حق لها عندنا وأغلق الباب في وجهها لكني لن أنسى آخر عبارة صرخت بها بعد ما فعل ذلك.

(سارة) بتوتر : ماذا قالت؟

(عائشة) بنبرة مشبعة بالخوف : قالت : «حق سعد لن يضيع وستذوق من الكأس نفسها وسترى أبناءك يهلكون أمامك ..»

(عبد الرحمن) : ولم تكتفِ بذلك بل استدارت نحو سكان الحي المتجمهرين خلفها وهددتهم أيضاً بقولها : « جميع أبنائكم سيهلكون!.. لن يعيش أيٌّ منهم بعد سعد ..!»

(بندر) : لكننا عشنا .. كلامها كان مجرد حديث فارغ في لحظة غضب

(عبد الرحمن) : في الواقع ليس تماماً .. بعد ذلك اليوم توقفت (أم سعد) عن بيع الدبس ولم تخرج من منزلها ولم تقبل العزاء في ابنها لدرجة أن أهالي الحي ظنوا أنها قد رحلت وهاجرت لمكان آخر حتى لمحوها بعد ما يقارب الشهر من تلك الحادثة تخرج من باب بيتها لخارج الحارة

(فهد) : وهل عادت؟

(عائشة) : ادعى أحد الأشخاص أنهم رأوها تعود فجراً بصحبة رجل غريب مما أثار سخط الأهالي الذين قرروا مواجهتها صباح اليوم التالي لكنهم وبعد اقتحام المنزل لم يجدوا أي أثر لها

(بندر) : هل قتلها ذلك الرجل الذي أتت بصحبته؟

(عبد الرحمن) : لا أحد يعرف .. لكن ما لم يكن طبيعيّاً هو حالة غرفتها

(فهد) : ماذا تقصد؟

(عائشة) : وجدوا فيها الكثير من الرسومات الغريبة على الجدران وبعض الطيور المذبوحة .. البعض قال بأنها كانت تحاول أن تعيد ابنها أو تتواصل معه باستخدام السحر والرجل الذي صاحبها كان ساحراً

(سارة) : هل تم إبلاغ الشرطة؟

(عبد الرحمن) : نعم لكن في ذلك الوقت لم يكن هناك وسائل متقدمة للتحقق من الأمر وفي الحقيقة لم يكترث أحد وكان الجميع قد ارتاحوا منها .. حتى بدأت حالات الاختفاء

(بندر) : حالات اختفاء ماذا؟

(عبد الرحمن) : الأطفال .. خلال السنوات التي تلت موتها وقعت عدة حوادث خطف لأطفال الحي بمعدل طفل أو طفلين كل عام

(سارة) : وما علاقة (أم سعد) بتلك الحوادث؟ .. لعلها مجرد مصادفة وشكوك غير واقعية

(عائشة) : لم تكن شكوكاً بل يقيناً رآه الجميع بأعينهم فبعد عشر سنوات من ذلك اليوم وتحديداً في منتصف أحد أشهر رمضان المبارك

خلال جولة ثلاثة أطفال من حي مجاور لنا ليلة «القرقيعان» وطرقهم لباب (أم سعد) وقعت حادثة مؤسفة كشفت لنا الكثير .. قصة طويلة انتهت بخطف أحدهم .. كان اسمه (بدر) على ما أظن .. اشتبك أبوه مع خاطفته التي وصفها بأوصاف شبه مطابقة لـ (أم سعد) لكن بصورة أبشع وأكثر وحشية وادعى أنه قتلها لكن الشرطة لم تجد جثتها أو أي أثر لها عند دخولهم المنزل وبعد تلك الحادثة قرر أبي الانتقال من الحي خاصة بعد ما اكتشف الأهالي جثث جميع الأطفال المفقودين متحللة في جرات فخارية في سطح منزلها.

(فهد) : صحيح .. كنت وقتها صغيراً لكني أذكر أننا انتقلنا في رمضان

(عائشة) : انتقل الكثير من الناس عن الحي في السنة نفسها فقد أثار ما وجدوه رعبهم وخشوا على أطفالهم

(بندر) : لكن إلى الآن لا أفهم علاقة ذلك بـ (سعد) نفسه ..

(سارة) بخوف : هل من يطاردنا هو شبح (سعد) أو روحه غير المستقرة؟

(فهد) : ما هذا الكلام الفارغ؟ .. لا يوجد شيء اسمه أشباح والروح بعد خروجها تعود لبارئها

(سارة) : من الذي يطاردنا إذًا؟!

(عبد الرحمن) مستأنفاً حديثه : ابتعادنا عن منزلنا القديم لم ينهِ كل الأحداث فقد بدأت أنا وعائشة نشاهد (سعد) يظهر لنا بين الفينة والأخرى .. في تلك الفترة لم نعد أطفالاً فأنا تجاوزت العشرين من عمري وقتها .. لم يكن يتعرض لنا بالأذى الجسدي لكنه كان يرعبنا كما أرعبكم اليوم ومهما حاولنا شرح ذلك وإخبار أمي وأبي به كانا لا يصدقاننا ويعزوان ذلك للتجربة السيئة والصدمة النفسية التي تعرضنا لها يوم موته وتهجم أمه علينا عندما كنا صغيرين

(عائشة) : لكن أمي صدقتنا بعد فترة ..

(فهد) : وما الذي غير رأيها؟

(عبد الرحمن) : بالرغم من تفرق سكان حينا القديم إلا أن أمي كانت لا تزال تتواصل مع جيراننا السابقين وذكروا لها أن ما كان يحدث معنا حدث مع أطفالهم بعد انتقالهم ولا يزال يحدث ومع ذلك لم تخبرنا بالحقيقة إلا بعد سنوات طويلة

(بندر) : أنا مشوش بين (سعد) وأمه .. هل ظهر لكما عندما كنتما صغيرين قبل حادثة رمضان؟

(عائشة) : لم نبدأ برؤيته إلا لاحقاً في منزلنا الجديد

(فهد) : وقتها أنا كنت موجوداً .. لَمَ لم يظهر لي؟

(عائشة) : لا أعرف .. لكنه تعرض لي ولـ (عبد الرحمن) بشكل متكرر

(سارة) : هل استمر (سعد) بمطاردتكما طيلة كل تلك السنين؟

(عائشة) : لا .. توقف فجأة .. بعد سنتين تقريباً من انتقالنا

(بندر) : وهل عرفتما سبب توقفه؟

(عبد الرحمن) : نعم ولا ..

(فهد) : ماذا تقصد؟

(عبد الرحمن) : قبل وفاة أبي بعدة أشهر كنا نتحدث أنا وهو عن منزلنا القديم وعن إمكانية بيعه فوجدت حديثنا قد أخذ منحى مختلفاً عندما استرجعت معه تلك الذكريات المؤلمة وتحدثنا فيها .. أخبرني بأنه وبعد نقاش مع أمي ومجموعة من الجيران الذين انتقلوا من الحي بشأن ما يسمعونه من أبنائهم وبناتهم وصلوا لقناعة بأن هناك أمراً مريباً يحدث لهم وأن ظهور (سعد) لنا ولهم لم يكن مجرد مصادفة أو من فبركة خيالنا وأن هناك سرّاً ما فاتفق الرجال على الاجتماع بشكل أسبوعي لبحث ومناقشة الأمر فيما بينهم واكتفى النساء بتبادل القصص والحوادث عبر الهاتف.

في تلك الفترة وكما قال أبي اشتدت هجمات (سعد) وطالت الكبير والصغير وتخطت الأبناء لتطال الجميع .. لم يلحق الأذى بأحد لكنه

بسبب أكثر من مرة بحالة انهيار عصبي لأحد الآباء أو الأمهات للدرجة أن أحدهم تعرض لأزمة قلبية نجا منها لكنها تركته مشلولاً. الأمر خرج عن السيطرة مع تقدم الأيام مما اضطرهم لطلب مساعدة خارجية واللجوء لمن لديهم خبرة واختصاص في مثل تلك الأمور.

(بندر) : وهل هناك من هم مختصون في هذا المجال الغريب؟ .. سيلجؤون لمن غير الله؟

(عائشة) : كان ذلك نقطة خلاف كما قالت أمي .. فالبعض اقترح اللجوء لشيخ دين وآخرون أرادوا التواصل مع ساحر معروف في منطقتنا

(سارة) : ساحر؟ .. هذا لا يجوز!

(عبد الرحمن) : اليأس والخوف قد يدفعان البعض لارتكاب الحماقات

(فهد) : وعلى من استقروا واتفقوا؟

(عبد الرحمن) : لم يحدث اتفاق بل نشب شجار كبير انتهى بقرار أن يلجأ كل شخص إلى من يريد ويثق به وبمشورته

(سارة) : وماذا كانت النتيجة؟

(عائشة) : توسعت الدائرة وتعقد الأمر أكثر ففي اللقاء الذي تلا ذلك

الاجتماع انقسم المجتمعون لثلاث فرق .. كل فرقة أتت حاملة معها تفسيرًا وحلًّا من مصدرٍ مختلف

(فهد) : ثلاثة؟ .. كنت أظن الخيارات محصورة بين شيخ وساحر

(عبد الرحمن) : هذا الاجتماع كان بين الرجال والنساء سواء للوصول لقرار نهائي .. طرح الفريق الأول والذي كان من ضمنه أبونا وأمنا حل الشيخ الذي تواصلوا معه وقدموا للبقية تفسيره لما يحدث فقد أخبرهم بأن من يطارد أطفالهم هو قرين (سعد) لأنه مات بطريقة بشعة وأمه دفنته دون أن تغسله أو تصلي عليه وذلك القرين أصيب بنوع من الجنون جراء ذلك وقرر الانتقام ممن أساؤوا إليه

(فهد) : وما كان ذاك الحل الذي اقترحه؟

(عائشة) : أن تصلى صلاة الميت عند قبره وإذا تعذر ذلك تقام الصلاة في المكان الذي مات فيه كي تهدأ سريرة قرينه

(بندر) : وأين قبره؟

(عبد الرحمن) : لا أحد يعرف .. أمه حملت جثته بعد موته ولم يرَها أحد بعدها لذا أصبح الحل هو بالصلاة عند الجرة

(سارة) بنبرة مشككة : هل أنتِ متيقنة من أن هذا كلام شيخ دين؟

(عبد الرحمن) : هذا ما قاله أبي لي

(فهد) : والفريق الثاني؟ .. والذي أفترض أنهم من ذهبوا للساحر

(عبد الرحمن) : نعم .. أخبرهم بأن ما يحدث هو ناتج عن استعانة (أم سعد) بساحر ليعمل لها عملاً خصت به كل أبناء أهالي الحي ونسلهم الحالي والمستقبلي وأن هذا العمل سلط عليهم شيطاناً مؤذياً ولن يهدأ أو يتوقف عن ملاحقة أطفالهم حتى يقتص منهم جميعاً حتى وإن كبروا والحل الذي قدمه هو بكسر الجرة التي مات فيها (سعد) لأن العمل أذيب وسطها وبذلك يبطل السحر ويتحرر الشيطان من عقده ورباطه

(سارة) : كل حل أغرب وأسوأ من الآخر ..

(بندر) : قلتما إن هناك فريقاً ثالثاً .. ماذا كان رأيهم؟

(عائشة) : هؤلاء لجؤوا الروحاني وقد قدم لهم مشورة مختلفة تماماً

(سارة) : ماذا يعني روحاني؟

(فهد) : ساحر تائب ..

(بندر) : أو شيخ دين يملك بعض علوم السحر

(فهد) : الشيوخ لا يتعاملون بالسحر

(بندر) : الإلمام بالسحر يختلف عن التعامل به

(عبد الرحمن) : لا يهم ماذا يكون .. المهم ما قاله

(سارة) : وماذا قال؟

(عائشة) : كلامه زاد من حيرتهم أكثر بالرغم من أنهم اتفقوا على مشورته وهي الخيار الذي اختاروه في نهاية المطاف لأنه ذكر لهم ما قاله الشيخ والساحر قبل أن يعرف أنهم لجؤوا إليهما

(فهد) باهتمام : وما كانت مشورته؟

(عبد الرحمن) : قال : لو لجأتم للشيوخ فسينصحون بصلاة الميت ولو لجأتم للسحرة فسيخبرونكم بأنه من أعمال السحر وسيوجهونكم لكسر الجرة وأحدهما مصيب في تفسيره لكنه معطوب في علاجه لأنه هلاك والآخر مخطئ التفسير لكن علاجه عين الصواب وتطبيقه منجاة

(بندر) : هذا لغز وليس حلًّا ..

(سارة) : هل وضح لهم ماذا يقصد بكلامه؟

(عائشة) : رفض أن يقول أكثر من ذلك لكنه لم يبخل عليهم بحلٍّ مختلف رأى أنه الخيار الأفضل لهم

(فهد) : أشعر بأن كل واحد منهم يروج لسلعته مستغلًّا حاجتهم

(عبد الرحمن) : كانوا عاجزين وقتها وخياراتهم محدودة ووقتهم ضيق

(بندر) : وما كان ذلك الحل؟

(عائشة) : نصحهم بالتوقف عن الحديث عن (سعد) وعدم ذكره أو ذكر اسمه نهائيّاً أو مناقشة ما يدور في بيوتهم مع أولادهم أو بعضهم وبعض في تلك الاجتماعات الأسبوعية .. قال بالحرف :

«أميتوا ذكره وذكراه وسيموت معهما ويرحل لكن لو عدتم لذلك فسيعود .. سيعود أشرس وأشد من ذي قبل ووقتها لن يرحل إلا بالطريقة الصحيحة ..»

(عبد الرحمن) : وبالفعل هذا ما قام به الجميع بعد ما تفرقوا ذلك اليوم ..

(سارة) : وهل نجحت طريقته؟

(عبد الرحمن) : استمر (سعد) بالظهور لهم ولأطفالهم لعدة أسابيع ومع التجاهل المستمر له ولشكوى أطفالهم المرعوبين خفت وتيرة تلك الحوادث شيئاً فشيئاً حتى اختفت بالكامل

(فهد) : حتى أثرناها اليوم بالصورة

(عائشة) : نعم .. لقد أحييتما ذكراه وقد عاد ..

(سارة) : وما الحل الآن؟

(عبد الرحمن) : هذا سبب اجتماعي مع أختكم هنا اليوم .. لقد تعرض لنا كذلك بعد ما افترقنا بعد الغداء وكان لا بد أن نجتمع لنقرر

(بندر) : تقرران ماذا؟

(عائشة) : أي الطريقتين هي المنجاة وأيهما المهلكة .. صلاة الميت أم كسر الجرة

(فهد) : الخيار واضح .. الصلاة بالطبع

(بندر) : وما أدراك؟

(فهد) : لا مضرة من إقامة الصلاة وقراءة القرآن

(سارة) : إقامة العبادة بطريقة خاطئة أو شركية لا يعني أنها صحيحة

(فهد) : وأين الشرك في الموضوع؟

(بندر) بعصبية : صلاة الميت تقام في المسجد أو المقبرة وليس أمام جرة فخارية!

(فهد) بتجهم ونبرة حادة : إذاً تريد تنفيذ كلام ساحر على أن تصلي؟!

(عبد الرحمن) بهدوء : لا تتجادلوا .. جيد أنكم أتيتم .. كنا أنا و(عائشة) في حيرة لكن قد تنتهي بكم

(سارة) : ماذا تقصد يا أخي؟

عبد الرحمن) : سنصوت .. كل واحد منا يختار الطريقة التي يراها لأنسب وسنقرر بعدها .. أنا أميل للصلاة

فهد) : وأنا كذلك!

(بندر) رامقاً (فهد) بامتعاض : أنا أرى أن نكسر الجرة!

(عبد الرحمن) موجهاً نظره لـ (عائشة) : ماذا عنكِ؟

(عائشة) بحيرة شديدة : لا أعرف ..

(فهد) : كيف لا تعرفين .. الصلاة هي الخيار الصحيح!

(عائشة) : أعرف لكن ..

(عبد الرحمن) : اختاري ما يميل له قلبكِ . .لا تقلقي

(عائشة) : في الحقيقة أتفق مع (بندر)

(فهد) صارخاً : ماذا؟! .. هل جننتِ؟!

(عبد الرحمن) رافعاً كفه في وجه أخيه : كف عن ذلك .. هذا خيارها

في تلك اللحظة توجهت أنظار الجميع لـ (سارة) والتي كانت ستحسم القرار باختيارها فظهرت عليها علامات التوتر والقلق وقالت : «لِمَ وضعتموني في هذا المأزق؟»

(فهد) : أنتِ عاقلة وأعرف مسبقاً ما هو اختيارك

(بندر) : لا تحاول التأثير عليها واتركها تقرر وحدها

(سارة) وهي في حيرة شديدة : من الأساس ما الذي يضمن لنا أن تلك الجرة لا تزال موجودة بعد كل تلك السنوات ..؟ سواء اخترنا كسرها أو الصلاة عندها

(عبد الرحمن) : منزل (أم سعد) قريب من هنا وسوف يتم إزالته خلال أيام مع بقية بيوت الحي .. يمكننا التحقق من وجود الجرة من عدمه بأنفسنا .. وهذه قد تكون آخر فرصة لنا

(سارة) : فلنترك البلدية إذاً تقوم بالإزالة وتهدم البيت على الجرة ونتحاشى الوقوع في المحظور

(فهد) بعبوس : وماذا لو كان ذلك هو الخيار السيئ وفُتح علينا باب لا يمكن إغلاقه للأبد؟!

(عائشة): الأمر لا بد أن ينتهي بطريقة أو أخرى .. والليلة ..

(عبد الرحمن) : ما قرارك يا (سارة)؟

(سارة) ناهضة من مقعدها سائرة بضع خطوات مبتعدة عنهم جائلة بنظرها حولها :

«هل يجب علينا الحديث هنا؟ .. المكان موحش»

لا وقت لذلك الآن! .. اتخذي قراركِ!

(فهد) بغضب : لا وقت لذلك الآن! .. اتخذي قراركِ!

(سارة) مغمضة عينيها واضعة كفوفها على أذنيها وظهرها مدار لإخوتها :

«لا تحملوني تلك المسؤولية!!»

نهضت (عائشة) من مكانها هي الأخرى واحتضنت أختها وقالت لـ (فهد) بنبرة موبخة :

«ماذا تفعل! .. لا تحدثها هكذا!»

(فهد) ماسحاً وجهه بكفه بحنق شديد : نحن نضيع الوقت!

وقف (عبد الرحمن) وقال محدثاً الجميع : هيا بنا..

(بندر) : إلى أين؟

(عبد الرحمن) وهو يهم بالسير لباب الخروج : لمنزل (أم سعد) .. سنقرر هناك

(سارة) برعب لأختها الكبيرة : لا أريد الذهاب إلى هناك!

(عائشة) لـ (عبد الرحمن) بعد أن فتح الباب : هل من الضروري أن نأتي جميعاً؟

(عبد الرحمن) مديراً نظره نحوها قبل أن يخرج : نعم .. كلنا بلا استثناء

تبع الجميع أخاهم الأكبر وساروا خلفه بين أزقة الحي القديم حتى وقفوا أمام منزل طيني ببابٍ حديدي مصبوغ باللون الأخضر تشعبت فيه بعض عروق الصدأ وحدقوا به لثوانٍ حتى قال (فهد) : هل هذا ..؟

(عائشة) : نعم .. منزل (أم سعد) ..

(بندر) : وكيف سندخل؟

(عبد الرحمن) رافسًا الباب بقدمه محطماً درفته المتهالكة : من الباب بالطبع ..

تقدم الأخ الأكبر نحو الطريق المظلم مستعيناً بكشاف هاتفه المحمول وتبعه البقية وقاموا بالمثل عدا (فهد) الذي لم يكن هاتفه بحوزته. بعد أن ولجوا من خلال المدخل وساروا خلال ممر ضيق مظلم داست (سارة) على شيء أصدر صوتًا كالقرمشة دفع الجميع لتوجيه أنظارهم وكشافاتهم نحوها ليروا أنها قد وطئت على سلة من الحصير الجاف تفتتت تحت أقدامها.

(عائشة) بنبرة مهمومة :

«كانت (أم سعد) تستخدمها لتوزيع الحلوى في منتصف رمضان على أطفال الحي ..»

استأنفوا سيرهم حتى توسطوا البيت ذا السقف المفتوح وكان أول ما

استقبلهم بعد أن توسطوا بهو المنزل هو رائحة قوية نفاذة أشبه برائحة الخل.

(فهد) مغطياً أنفه بظهر يده : ما هذه الرائحة؟

(عبد الرحمن) رافعاً ضوء هاتفه فوق رأسه :

«لنفترق ونبحث في جميع الغرف عن الجرة إن كانت لا تزال موجودة ..»

تفرق الإخوة في جميع أرجاء المنزل الذي تكون من طابق واحد فقط حوى ثلاث غرف وسلمًا حجريًّا مؤديًا لسطح مفتوح صعده (بندر) ومن خلفه (فهد) ليستكشفاه. توجهت (عائشة) و(سارة) للغرفة الأقرب لهما ودخلتاها بعد ما دفعتا بابها الخشبي ووجهتا أنوار هاتفيهما لأرجاء الغرفة لتصدما بمنظر مخيف ومقزز. رأتا مجموعة من المعاليق الحديدية الصدئة متدلية من السقف فخرجتا على الفور بعجالة.

لاحظ (عبد الرحمن) التوتر والجزع على وجه أختيه وقال لهما :

«ما بكما؟ .. هل وجدتما شيئاً؟»

وقبل أن تجيب أي منهما سمعا (فهد) ينادي عليهم من السطح قائلاً :

تعالوا هنا! .. لقد وجدناها!

صعد الثلاثة السلالم الحجرية وعند وصولهم فوجئوا بمنظر غريب ..

رأوا (بندر) و(فهد) يقفان بين مجموعة من الجرار الفخارية مصفوفة على امتداد جدار السطح لكن واحدة منها كانت أكبر بكثير من البقية ووقفت فوق ما يشبه القاعدة الخشبية المربعة زادت من ارتفاعها أكثر فقالت (عائشة) بخوف ووجل: «هذه هي الجرة التي غرق فيها (سعد الدَّبَّاس) ..»

في تلك اللحظة انطلقت ضحكات بصوت صبي صغير أتت من الطابق السفلي ..

قفزت (سارة) على أختها الكبيرة وانهارت بالبكاء وهي تقول: «لنخرج من هنا!!»

تحولت الضحكات فجأة لصرخات تخللها بعض العبارات مثل: «أريد اللعب معكم ..» .. «لا أريد العودة ..»

(فهد) بتوتر شديد لأخويه: حان وقت اتخاذ القرار!

لمح (بندر) حجراً على الأرض فقبض عليه وهم بكسر الجرة لكن (فهد) أمسك ساعده ومنعه قائلاً: لم نسمع من (سارة) بعد!

بدأت أصوات الضحكات والصراخات تقترب وتزداد وضوحاً وكأن مطلقها أخذ بصعود السلم الحجري ببطء ..

(عائشة) محاولة حث أختها الصغيرة على الحديث : هيا .. أخبرينا بقرارك!

(سارة) وقد دخلت في حالة من الانهيار : لا أستطيع! . . لا أستطيع!

انكسرت جرة من الجرار الصغيرة وسال منها مادة سوداء لزجة تبعتها جرة ثانية فثالثة واستمرت الجرار بالتحطم واحدة تلو الأخرى حتى بدأت الأرض تتغطى بالسواد التام والمادة اللزجة تتحرك بهدوء وثبات نحوهم.

(عبد الرحمن) فاقداً لهدوئه : لن أنتظر أكثر!

وجه الأخ الأكبر وجهه نحو الجرة وكبر..

انضم (فهد) إليه وكبر وراءه و(بندر) يرقبهما بجزع ممسكاً الحجر بيد وباليد الأخرى وجه الكشاف للسائل الأسود الداني من أقدامهما وصوت ضحكات (سعد) وصرخاته باتت أقرب لدرجة أنه بدا وكأنه معهم في السطح. كبر (عبد الرحمن) التكبيرة الثانية وكبر وراءه (فهد) والسائل الأسود قد غطى أقدامهما بالكامل وبدأ بالصعود على سيقانهما ملطخاً الجزء السفلي من ملابسهما وكان واضحاً أنهما يتألمان لكنهما لم يقطعا الصلاة.

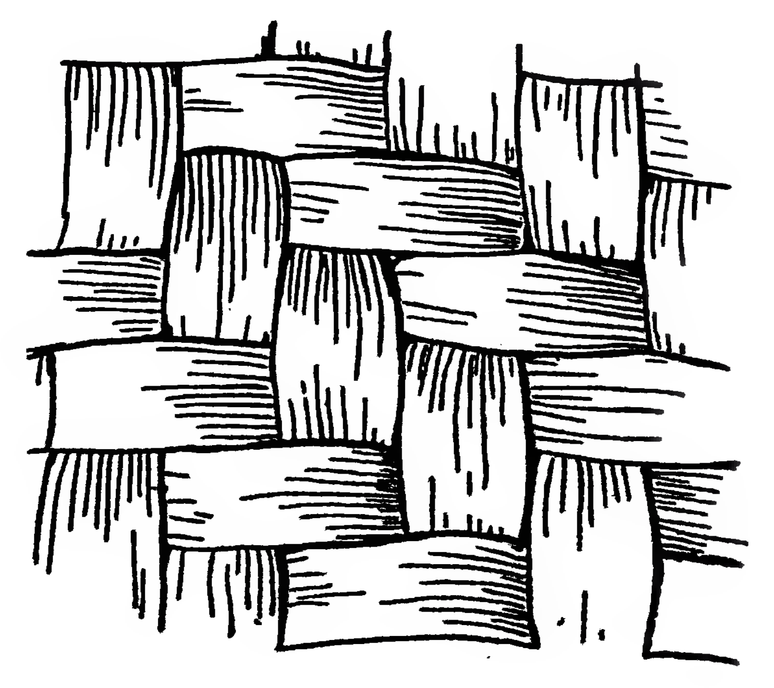
جرت (عائشة) وشدت معها (سارة) ووقفتا بجانب (بندر) عندما

سمعا الطفل يحدثهما من ورائهما بصوت غليظ ومخيف جداً قائلاً: «لمَ لا تريدان اللعب معي ..؟!»

كبر (عبد الرحمن) التكبيرة الثالثة ووقتها وصل السائل الأسود اللزج لعنقه مثل (فهد) ولم يبقَ سوى رأسيهما الراجفين ووجوههما الدامعة من الألم الذي ضرب أجسادهما. صرخ (بندر) فيهما بإنهاء الصلاة بسرعة لكن وقبل أن يقوم (عبد الرحمن) بنطق التكبيرة الأخيرة تغطى رأسه بالكامل بالسواد والأمر ذاته حدث مع (فهد) ليسقطا مباشرة على الأرض مما دفع (سارة) وبشكل مفاجئ لأخذ الحجر من يد (بندر) وضرب الجرة به وهي تصرخ وتبكي.

تهاوت الجرة الطينية وتحطمت لقطع صغيرة أطلق على أثرها (سعد الدَّبَّاس) عويلاً مرعباً وعالياً حطم بقية الجرار الصغيرة ورمى بمن تبقى من الواقفين أرضاً ليفقدوا الوعي مباشرة.

الشر المقيم والأرواح الساكنة



«هل نجح الأمر..؟»

قالتها (سارة) بعد ما فتحت عينيها في غرفة غريبة عليها وهي مستلقية على سريرٍ أبيض وأختها الكبرى (عائشة) تجلس بجانبها على طرفه تمسح جبينها باسمة وهي تقول:

«نعم.. لقد انتهى كل شيء.. انتهى الكابوس..»

(سارة) بوجه مصاب ببعض الكدمات والجروح المطببة بالضمادات:

أين نحن؟

(عائشة) : في المستشفى ..

(سارة) بقلق : هل حدث لأحد مكروه؟

(عائشة) : لا .. جميعنا بخير .. أنتِ فقط لم تفيقي عندما حاولنا إيقاظك فجلبناك إلى هنا وأخبرناهم بأنكِ وقعتِ عن السلالم وطمأننا الطبيب بأنكِ بخير وقد تيقنت من كلامه عندما استيقظتِ الآن

تبسمت (سارة) وزفرت بارتياح : الحمد لله ..

همت (عائشة) بالنهوض لكن (سارة) استوقفتها قائلة : هل ستتركينني وحدي؟

(عائشة) : لا يا حبيبتي ..أنا ذاهبة لأحضر لكِ بعض الطعام .. الطبيب سمح لي بأن أبقى معكِ كمرافقة اليوم

(سارة) بخليط من الحزن والتململ : أريد العودة للبيت الآن

(عائشة) باسمة : موعد خروجك غداً .. سنذهب جميعاً عندما يحضر إخوتك لزيارتك .. ما رأيك؟

تبسمت (سارة) وهزت رأسه بالموافقة ..

خرجت (عائشة) تاركة أختها الصغيرة تحدق بساعة الحائط التي أشارت للثانية صباحاً ثم أدارت نظرها للمنضدة بجانب سريرها

لترى هاتفها ينير بصمت. مدت يدها والتقطته ورأت اسم (بندر) ففتحته وقربت السماعة من أذنها قائلة : «أهلاً (بندر) ..»

(بندر) : الحمد لله أنكِ استيقظتِ .. كيف حالكِ؟

(سارة) : بخير .. لَمَ رحلتم قبل أن أراكم بنفسي؟

(بندر) : شعر (عبد الرحمن) بالتعب وقرر الرحيل بالرغم من أنه كان قلقاً عليكِ جدّاً لكننا أقنعناه بأننا سنتصل به حال استيقاظكِ

(سارة) : لا أنا بخير لا تشغلوا بالكم .. اذهبوا وارتاحوا أنتم كذلك وسأراكم غداً

(بندر) ضاحكاً : فات الأوان على ذلك فجميعنا في الطريق إليكِ الآن لكننا اضطررنا للعودة للمنزل على عجالة لأن (عائشة) أرادت إحضار بعض الحاجيات الخاصة بكِ عندما أخبرها الطبيب بأنكِ ستبيتين يوماً في المستشفى للملاحظة

(سارة) : نعم لقد أخبرتني ..

(بندر) باستغراب : من أخبرك بذلك؟

(سارة) : (عائشة) بالطبع ..

(بندر) بخليط من التوجس والريبة : (عائشة) ..؟

(سارة) وهي تتبسم لرؤيتها (عائشة) تدخل عليها حاملة صينية معدنية :

«نعم .. حسناً نحن بانتظاركم .. لا تتأخروا..»

(بندر) بتوتر شديد : اسمعيني يا (سارة) .. (عائشة) لـ ..

أخذت (عائشة) الهاتف من يد أختها ووضعته عند أذنها وقالت ضاحكة :

«كف عن إزعاجها يا (بندر) أختك يجب أن تأكل الآن كي تنام. حاولوا أن تصلوا قبل أن تغفو مجدداً ..»

أغلقت (عائشة) الهاتف بإبهامها ووضعته على المنضدة وجلست على طرف السرير بينما تبسمت (سارة) وهي تتأمل الصينية التي بسطتها أمامها فوق اللحاف وقالت : ما هذا؟

(عائشة) ممازحة : هذا ما استطعت سرقته من مطبخهم!

(سارة) رافعة الملعقة ضاحكة : كلها حلويات!

(عائشة) وهي تتأمل أختها وبنبرة باردة : وهل هناك أجمل من الحلويات؟

(سارة) خلال اندماجها بتذوق الأصناف دون أن ترفع نظرها : بالطبع

لا .. لكني توقعت أن تجلبي لي شيئاً ذا قيمة غذائية أفضل

في تلك اللحظة رمشت الإنارة في الغرفة مما دفع (سارة) لرفع رأسها فوقها وهي تقول : «أرجو ألا تنقطع الكهرباء .. أخذت كفايتي من الظلمة هذا اليوم ..»

(عائشة) دون أن تحيد بنظرها عن أختها وبالبرود نفسه خلال استمرار رمش الأنوار :

«تجاهلي الأنوار وأكملي طعامك ..»

(سارة) منزلة رأسها عن السقف موجهة نظرها نحو (عائشة) :

«ما بكِ يا أختي .. تبدين متعبة ..»

(عائشة) : أنا متعبة منذ سنين .. منذ رحيله ..

(سارة) بتعجب : رحيل من؟ .. زوجك؟

رمشت الأنوار مجدداً وخلالها شاهدت (سارة) ملامح (عائشة) تتغير لثوانٍ خلال الظلمة الخاطفة لوجه بشع .. وجه أشبه بامرأة عجوز بوجه مجعد قبيح فانتفضت مسقطة الملعقة من يدها على الأرض.

التقطت (عائشة) الملعقة ومدتها لها وهي تقول : أكملي طعامك ..

(سارة) وعدم الارتياح يتسلل لصدرها: شبعت

(عائشة) بنظرات تزداد حدة : أكملي ..

(سارة) ماسحة على حلقها : أريد بعض الماء وأعدك بأني سأكمل

(عائشة) بتجهم بسيط وهي تهم بالنهوض للتوجه للثلاجة الصغيرة في آخر الغرفة :

«ستكملين أكل كل الحلوى في الصينية شئتِ أم أبيتِ ..»

شعرت (سارة) بالرعب مما يحدث وعندما أدارت (عائشة) ظهرها لها بعد نهوضها التفتت نحو هاتفها لتجده مضاء باتصالٍ ما .. مدت يدها وأخذته .. وكانت صدمتها كبيرة وخانقة عندما شاهدت أن الرقم المتصل هو (عائشة) فرفعت نظرها نحو أختها التي كانت للتو قد فتحت باب الثلاجة وقامت برفع السماعة بيد راجفة وفتحت الخط ولم تقل شيئاً لكنها سمعت أختها تحدثها وهي تبكي قائلة :

«لَم لا تردين! .. هل أنتِ بخير؟! .. من معكِ؟! .. (بندر) يقول ..»

أغلقت (سارة) الخط عندما لمحت المرأة التي تيقنت الآن أنها ليست أختها تغلق باب البراد عائدة نحوها بقارورة ماء صغيرة وخبأت الهاتف تحت اللحاف. جلست المرأة التي تشبه (عائشة) على طرف السرير ومدت القارورة لها وهي تقول : «هيا لتكملي طعامك ..»

وترمي بها بقوة للحائط المقابل لترتطم بسطحه بوجهها مباشرة وتكسر أنفها الذي بدأ ينزف بغزارة على ردائها.

الغرفة كانت شبه مظلمة ولم ينرها سوى بعض أشعة الضوء القادم من المدخل المؤدي لممر القسم الذي بدأت (سارة) بالزحف نحوه بجسد يئن وجعاً والعجوز تسير خلفها ببطء متأملة عجزها باسمة. بعد ما أطلت برأسها من فتحة الباب انتبه بعض الممرضات المناوبات لها وجرين نحوها وأنهضنها وشاهدن الدماء تغطي وجهها ولباسها فقالت إحداهنّ:

«ما الذي حدث لكِ؟!»

قبل أن تجيب عليها امتدت يد مجعدة بسرعة خاطفة من الغرفة وسحبت إحدى الممرضات تبعها صرخات استنجاد عالية مختلطة ببعض الزمجرات المخيفة ما دفع البقية للهرب من المكان تاركات (سارة) تسند نفسها على جدار الممر وتكمل هروبها ببطء. خرجت العجوز بفم يقطر دماً تلتفت يميناً وشمالاً كالوحش الشبق للدم حتى وقعت عيناها البيضاوان على (سارة) التي قد بلغت المصعد واستدعته بكبس أحد أزراره وجلست بجانبه في انتظار وصوله. تحركت العجوز المسعورة نحوها حتى وقفت أمامها مكشرة عن أسنانها القبيحة الملوثة

بدماء المرضة رافعة كفيها ذواتي الأظافر المتسخة الطويلة في نية لتمزيقها لكنها توقفت عندما سمعت جرس المصعد يرن معلناً عن وصوله.

تباعدت درفتا باب المصعد كاشفاً عن ركابه .. (فهد) .. (بندر) .. (عائشة) ..

صاحت العجوز في وجوههم فما كان من الأخوين بعد رؤيتهما لأختهما الصغيرة المصابة إلا أن قفزا على تلك الشمطاء مسقطين إياها أرضاً بينما جرت (عائشة) نحو أختها الصغيرة المرعوبة جالسة عندها محتضنة إياها وعينها على أخويها اللذين دخلا في صراع مع تلك المرأة الهائجة.

قوة تلك العجوز مكنتها من طرح (بندر) جانباً بلطمة قوية بيد وباليد الأخرى قبضت على عنق (فهد) وغرست أطراف أظافرها فيه وقربته من وجهها مباعدة عن فكيها في نية لقضمه. هرول (بندر) نحو أقرب شيء يستطيع الإمساك به وهي أسطوانة أكسجين خضراء فارغة في نهاية الممر الذي بدأ يحتشد بالمرضى والأطباء جراء صوت الفوضى التي جذبتهم.

قبل أن تطبق العجوز على عنق (فهد) بأسنانها وجدت قاع الأسطوانة يضرب رأسها لتسقط أرضاً تبعها عدة ضربات أخرى هشمت جزء من وجهها وخلال ذلك أمسكت بيديها سيقان (بندر) الواقف عند رأسها وسحبته بقوة لتوقعه على قفاه.

ملامح العجوز تحطمت بالكامل وتحول وجهها لقطعة من اللحم المعجون لكن مع ذلك نهضت من مكانها تلوح بأظافرها الحادة نحوهم وخلال تلويحها أصابت صدر (فهد) ومزقت ملابسه ولحمه لكنه لم يهتز أو يتردد في حمل الأسطوانة الواقعة بجانب أخيه وتوجيه ضربة قوية لصدرها دفعتها للخلف مفرقة جمعاً من المتجمهرين الذين صرخوا وصاحوا رهبة وجزعاً مما يحدث.

بقيت العجوز المسعورة تصرخ وتصدح وسط الممر سخطاً لفقدانها معظم قدرتها على الإبصار فمد (فهد) يده وأنهض أخاه وقال له :

«هذه فرصتك! .. ابتعد عن هنا!»

(بندر) واقفاً بجانب أخيه ونظره على المرأة التي بدأت تسير نحوهم مزمجرة :

«أنا لن أرحل لأي مكان .. كن مستعدًّا فقط!»

شد (فهد) من قبضته على أسطوانة الأكسجين موجهاً نظره للعجوز الثائرة:

«حسناً.. ماذا تنوي أن تفعل؟»

جرى (بندر) بكل سرعته نحو المرأة وبدأ يوجه لها سيلاً من اللكمات والرفسات شتتها قليلاً لكنها وبسرعة خاطفة قبضت على وجهه بكفها ورمت به في غرفة مجاورة ودخلت خلفه لتجهز عليه. لحق (فهد) بهما ووجد أخاه ملقى على الأرض يزحف للخلف هرباً من تلك العازمة على قتله حتى اصطدم ظهره بالجدار وفوقه نافذة زجاجية مغلقة. قبل أن تنزل العجوز أظافرها على (بندر) المحاصر تلقت ضربة على رأسها من الخلف بقاع الأسطوانة فالتفتت وراءها ببطء بوجه متجهم ونازف لتجد (فهد) ينظر إليها بجزع وارتباك لعدم تأثرها بتلك الضربة لكن قبل أن ترد عليه فتح (بندر) النافذة وشدها من شعرها حانياً رأسها للوراء مبرزاً عنقها للأمام صارخاً في أخيه قائلاً: «الآن!»

وجه (فهد) ضربة قوية أخرى لعنقها أتبعها بضربة أخرى لصدرها وثالثة لوجهها حتى أصبحت تترنح عند طرف النافذة المفتوحة وخلال ذلك زحف (بندر) على أطرافه الأربعة ووقف بجانب أخيه

يتأمل تلك الممسوخة وهي تنزف وتضحك قائلة :

«عبثاً تحاولون قتلي .. أنتم من سيغرق في دمائكم كما غرق (سعد)! .. أنتم هالكون وأنا مخلدة! .. لا أرضَ سأدفن بها ولا بحرَ سأغرق فيه!!»

أمسك (بندر) بطرف الأسطوانة المتدلي وقال : «ماذا عن السماء؟ .. هل تستطيعين الطيران؟!»

فهم (فهد) قصد أخيه واندفع الاثنان وضرباها بالأسطوانة على وجهها دافعين بها من النافذة لتسقط من ارتفاع ٩ طوابق مرتطمة بالأرض الخرسانية. أطل الاثنان يتأملان جثتها الدامية والتي بدأ بعض الناس في الأسفل بالاقتراب منها بحذر؟

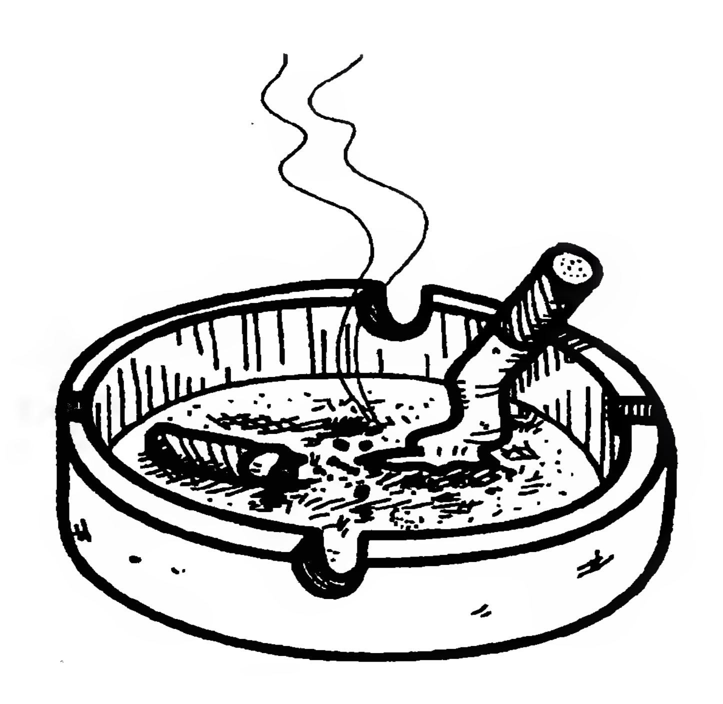
(بندر) بوجه متورم وجروح نازفة مراقباً من الأعلى : من كانت تلك المجنونة؟

(فهد) رامياً بالأسطوانة جانباً ماسحاً جبينه بظهر يده وعيناه على الجثة الملقاة بالأسفل : «أعتقد أنها ..»

(عائشة) من خلفهما مقاطعة : أم سعد .. أم (سعد الدَّبَّاس) ..

التفت الأخوان ليشاهدا أختيهما واقفتين خلفهما تنظران إليهما ولم يتبادل أحد منهم الحديث بل اكتفوا بالسير بعضهم تجاه بعض والعناق وسط الغرفة. دخل المستشفى بأكمله في حالة من الفوضى بينما سمع صوت صفارات سيارات الشرطة التي وصلت للتو.

نهاية الحياد



مكتب التحقيقات الجنائية في قسم الشرطة بعد منتصف الليل

مدير القسم يراجع قضية وضعت على مكتبه قبل عدة ساعات

يُطرق الباب .. يأذن المدير للطارق بالدخول ..

شاب صغير في منتصف العشرين من العمر ..

أطفأ المدير السيجارة التي كان يدخنها وقال : أنت المحقق الجديد أليس كذلك؟

- بلى .. لقد أبلغوني هذا الصباح بأنه تم طلب ..

(مدير القسم) مقاطعاً : لَمَ استقلت من عملك السابق؟

- مجرد عدم ارتياح .. لا شيء يخص من كنت أعمل معهم

(مدير القسم) : ولَمَ لم تباشر وتحضر هنا في الصباح؟ .. ما الذي أتى بك في هذا الوقت المتأخر؟ .. هل أنت معتوه؟

- لا لا .. لقد حضرت باكراً لكني لم أجدك وكنت أريد مقابلتك شخصيّاً وقد أخبروني بأنك تأتي في هذا الوقت وقد ..

(مدير القسم) مقاطعاً مرة أخرى : لولا تزكية المحقق (نادر) لك لما قبلت بوجود شخص مثلك في قسمنا

- أنا آسف لكني ظننت ..

(مدير القسم) رامياً بالملف الذي كان يتصفحه سابقاً على الطاولة أمام الشاب :

لا تكثر الكلام .. خذ هذه القضية لفريقك الجديد في قسمكم وسلمها

لرئيسك وابدؤوا بالتحقيق فيها على الفور .. هذه سلسلة جرائم قتل وخطف أطفال ذات تاريخ طويل وأريد حلها في الحال .. الفاعلة هربت من آخر مواجهة حدثت معها في مستشفى المدينة المركزي وما زال البحث عنها جارياً لكن الإفادات التي أخذناها ممن تعرضوا للهجوم غريبة وخارجة عن اختصاصنا

مد الشاب يده والتقط الملف ونظر لما هو مكتوب على ظهره وقرأ :

«القضية ١٠٥ / أم سعد»

تعجب الشاب وقال : لم أفهم .. أليست جرائم القتل من اختصاص قسمكم هذا؟

(مدير القسم) مشعلاً سيجارة نافخاً سحابة من الدخان :

ليس هذا النوع من القضايا .. هناك قسم يتفرع من قسمنا هذا أنشأناه قبل عدة أشهر للبت في مثل هذه الجرائم الشائكة والمعقدة ويرأسه المحقق (نادر) وهو الذي طلبك بالاسم لتنضم لفريقه بعد ما قرأ ملفك وتحدث مع رئيسك السابق في ((هيئة مكافحة الفساد والرذيلة))

- ترشيح شخص كالمحقق (نادر) لي شرف عظيم فتاريخه عظيم ومشهود له

(مدير القسم) : لذا لا تخذله لأني كنت معارضًا لترشيحك وسوف أستغل أي إخفاق منك لتوبيخه

- سأبذل قصارى جهدي كي لا أخذل أيّاً منكما

(مدير القسم) ملوحاً بيده للشاب : يمكنك الانصراف ..

استدار الشاب وهم بالرحيل حاملاً ملف القضية معه لكن المدير استوقفه وقال : انتظر ..

- نعم يا سيدي

(مدير القسم) نافخاً سحابة من الدخان مشيراً بسبابته لوجه الشاب : ألم تكن ملتحيًا؟

(الشاب) ماسحاً على ذقنه بكفه : بلى في السابق .. كيف عرفت ذلك؟

(مدير القسم) : من صورة ملفك الذي وصلنا من الهيئة .. لِمَ حلقتها؟

(الشاب) : لا يوجد سبب محدد .. ذهبت مع أشياء كثيرة غيرها

(مدير القسم) : حسناً .. لا تتأخر على فريقك

(الشاب) : هل هم موجودون الآن؟ .. إنها ليست أوقات العمل الرسمية

(مدير القسم) : فريق «مكافحة الجرائم الخارقة» يعمل على مدار ٢٤ ساعة وليس لهم مواعيد عمل محددة .. ستجدهم في الطابق الأخير من هذا المبنى .. بالتوفيق يا (خالد) ..

الماضي لا يموت .. حتى وإن دفناه أو سكتنا
عنه وتوقفنا عن استذكاره ..

لا أحد ينسى .. يمكنك أن تتناسى ..
لكنك لن تنسى أبداً

خاصة تلك الذكريات المحفورة في ضمائرنا
والمنحوتة على جنبات عقولنا
بريشة الألم ومحبرة الظلم ..